الفصل الخامس

«أيامكم القليلة الشريرة»

obeikan.com

obeikan.com

« آن أوان الانتقام ، والرب يريدنى أن أبوح بأسرار جديدة ... »

چيرولامو ساڤونارولا

من الأفكار التى راجت عن سفر الرؤيا ، أن الآمال والمخاوف المتعلقة بنهاية العالم اشتدت فى سنة ١٠٠٠م. فيمكن تصور نهاية الألفية الأولى من التقويم المسيحى مناسبة لانتشار أوهام شعبية غير عادية وحالة جنون تصيب جموع العوام تحت تأثير الاعتقاد المؤكد بأن النهاية وشيكة ، أى « هلع سنة ١٠٠٠م » حسب عبارة تداولتها قلة من المؤرخين المتحمسين[١] .

المشهد متصور فى فيلم لإنجمار برجمن بعنوان « الختم السابع ــ The Seventh Seal » ، وهو عنوان يلمح إلى آخر الأزمان كما ورد وصفها بسفر الرؤيا. فحمل الرب يستعد لفض الختم السابع عن مشهد ملىء بالأوبئة والجثث ونذر الشؤم والتائبين ومن يجلدون أنفسهم ندمًا وتقربًا إلى الرب والمبشرين المنذرين بالشؤم وفرسان فى غزوات صليبية. إلا أن فكرة الفزع الألفى فى سنة ١٠٠٠م فكرة خطأ ككثير من الأقوال الشائعة عن سفر الرؤيا[٢] .

هناك كثير من المبشرين فى العصور الوسطى تحمسوا لفكرة مرور ألف سنة منذ ميلاد يسوع الناصرى ، وكانوا مقتنعين بأن شيئًا غريبًا سيحدث حتمًا. ولكنهم لم يتفقوا فيما بينهم على ما إذا كانت السنة الخطيرة ستكون سنة ١٠٠٠ ذكرى ميلاد يسوع أم ١٠٣٣ ذكرى صلبه أم فى سنةٍ ما بين هذه وتلك؟. بل إن تمرين عد السنين إلى نهاية العالم فى وحدات من ألف سنة كان « ولا يزال » يعتوره خطأ فى حسابات ديونيسيوس إكيسجوس راهب القرن السادس الذى وضع نظام التقويم الذى يستعمل علامتى ق. م (قبل الميلاد) وب. م (أى : سَنَة ربنا). و ديونيسيوس فى البحث العلمى الحديث « أخطأ فى سنة مولد

المسيح بمقدار أربع سنوات وربما ست»[٣]. ونتيجة لذلك فنهاية الألفية الأولى ربما مرت دون أن يتنبه لها أحد قبل حلول سنة ١٠٠٠م بتقويمه ببضع سنوات.

تمكن المسيحيون الذين اكترثوا بتحذيرات يسوع وبولس وأوغسطين من مثل هذا الرجم بالغيب من البقاء هادئين مع اقتراب سنة ١٠٠٠م، ومرت السنة دون حدوث شيء. وكذلك فعل قراء الكتاب المقدس ممن عرفوا أن سفر الرؤيا لا يعتبر مرور ألف سنة من ميلاد يسوع أو وفاته علامة فارقة. فحكم يسوع المسيح على الأرض سيدوم ألف سنة بالطبع، لكن تاريخ بدء المملكة الألفية لم يرد له أى ذكر بسفر الرؤيا. وواصلت الكنيسة نفسها التأكيد على قراءة الرؤيا «روحيًّا» لا «حسيًّا»، وهو مبدأ ساعد على إخماد نيران الشوق الرؤيوى بين المسيحيين المطيعين.

يقول راهب يدعى آبو الفلورى (توفى ١٠٠٤م) عن تجربة مر بها إبان العد التنازلى نحو سنة ١٠٠٠م: «سمعت فى شبابى قداسًا عن نهاية العالم حضرته رعية كاتدرائية باريس، فحواها أنه ما أن يتم عدد الألف من السنين، حتى يجىء المسيح ويعقبه الحساب الأخير بعد فترة وجيزة». وكان آبو قارئًا حذرًا للنصوص المقدسة اليهودية والمسيحية فلم يكترث بكل هذه التخمينات: «كنت أعارض بكل ما أوتيت من قوة هذه الفكرة القائمة على فقرات من الأناجيل وسفر الرؤيا وسفر دانيال»[٤].

والحقيقة أن آبو المراقب المعاصر الوحيد الذى يربط بين سنة ١٠٠٠م ونبوءات آخر الزمان بالكتاب المقدس، وهو «لا يفعل ذلك إلا لنبذ الفكرة»[٥]. ومع ذلك فإن الراهب الصالح يتوقع للعالم أن ينتهى حتى وإن رفض التكهن بالموعد الدقيق لذلك. بل إن الحمى الرؤيوية فى المسيحية الوسيطة كانت مزمنة ولم تكن حادة، ولم تحقق الكنيسة أى نجاح فى صد ما عرف بالغزو الرؤيوى للقرن الرابع. فأتباع المسيحية الوسيطة، لا سيما فى غرب أوروبا، كانوا معرضين للرمزية الرؤيوية فى زخارف الكنائس والعمارة التذكارية ونقوش المنشآت العامة ومخطوطات الأسفار المقدسة وخطب الوعاظ وكتّاب الرسائل والفنون والآداب العلمانية التى ازدهرت فى أواخر العصور الوسطى وعصر النهضة.

يقول برنارد مكجين وزميله ريتشارد إمرسن وهو زميل متخصص فى رؤيوية

العصور الوسطى: «إن سفر الرؤيا كلى الوجود، ورؤيا يوحنا القوية تخللت شتى مناحى الحياة الوسيطة»[٦].

وبالنسبة لمن عاشوا فى عالم أوروپا الوسيطة المزعزع، ذلك العالم الذى كان يتأرجح بين الرجاء واليأس، كان سفر الرؤيا نصًّا مثيرًا بل مسكرًا. فكان فض الأختام السبعة والنفخ فى الأبواق السبعة وصب قدور غضب الرب السبعة، مثلاً، بمثابة طريقة لفهم وتحمل ما ألم بالعالم المسيحى من كوارث، من غزو وحروب وثورات ومجاعات وأوبئة وزلازل وسيول. وفى الوقت نفسه، كانت رؤيا يوحنا المتسامية عن «سماء جديدة وأرض جديدة» بمثابة وعد براق بالخلاص والثواب شد من أزر قراء سفر الرؤيا حتى - بل لا سيما - فى أحلك لحظات الاضطراب.

وما إن انطبعت صور «الترسانة اللغوية» لسفر الرؤيا بأوهامها المثيرة والمخيفة عن آخر الأزمان فى مخيلة الغربيين فى العصور الوسطى حتى استعصت على الزوال أبدًا. بل إن التركيز المفرط على موعد زوال العالم وكيفيته وسببه يمكن اعتباره عادة مسيطرة على العقل الغربى بدرجة لا تقل فى الألفية الثالثة عنها فى الأولى، ولا تقل فى الثقافة الشعبية للقرن العشرين عنها فى الفن والأدب الدينى فى أوروپا الوسيطة. فالاستحواذ يبدأ هنا والآن.

كان حكم المسيح لألف سنة على الأرض ـ كما رأينا ـ يعد فى نظر أوغسطين وغيره من الكتّاب المسيحيين إشارة رمزية لسيادة الكنيسة نفسها. فكانت «الكنيسة المحاربة والمنتصرة» حسب وصفها لنفسها هى المملكة الألفية. وهناك عالم لاهوت قديم حدد سنة ٣٢٦م بأنها السنة التى يرفع فيها الإمبراطور قسطنطين الكنيسة إلى السلطة والمجد الأرضيين فى روما، وبالتالى حدد نهاية العالم بسنة ١٣٢٦م، أى بعد ذلك بألف سنة بالتمام إعمالاً لنبوءة سفر الرؤيا.

إلا أن هناك مسيحيين آخرين عاشوا فى العصور الوسطى لم يقتنعوا بأن الكنيسة المحاربة والمنتصرة تستحق أن تقارن بمملكة القديسين والشهداء كما ورد وصفها بسفر الرؤيا. إذ رأوا شيئًا شيطانيًّا فى تجاوزات الكنيسة ومخالفاتها بعد أن اغتنت وقويت شوكتها. فالكهان مثلاً والأساقفة وحتى البابوات اتخذوا زوجات ومحظيات أو كلتيهما

معًا، وهى عادة أدينت باعتبارها من بقايا «النيقولاوية» (مصطلح مستعار من سفر الرؤيا يستعمله يوحنا فى إدانة طائفة ظهرت بالكنيسة الأولى). وشاع الزواج الكهنوتى لقرون بالطبع، ولو أنه صدر قانون كنسى فى القرن الثامن حظر على الكاهن الزواج بأكثر من امرأة واحدة. أما الآن فيطالب المتشددون الكنسيون بالالتزام الصارم بالعزوبية.

يروى عن أحد الوعاظ أنه قال فى سنة ١٠٥٩م: «الأيدى التى تلمس جسد المسيح ودمه لا ينبغى أن تكون لامست فرج قحبة» فى إشارة لا إلى البغايا بل إلى زوجات رجال الدين المبجلات[٧].

لكن الدعوة للعفاف لم تكن أمرًا روحانيًّا خالصًا؛ إذ كانت تخدم المصالح المادية والسياسية للكنيسة أيضًا. فالأسقف الذى يعول زوجة وعيالاً قد يميل لاعتبار أراضى أسقفيته ومنشآتها وثرواتها ملكية تورث لأبنائه. فثروة الكنيسة وقوتها تتعرض للخطر ما لم يكن رجال الدين مجردين من إغراء أو فرصة إنجاب ورثة مرتقبين. وكانت هموم كهذه تساور البابا جريجورى السابع (١٠٢٠ ـ ١٠٨٥م) حين شكا من الزواج الكهنوتى باعتباره «رجسًا لعدوى حسية توهن من كبح الشهوات»[٨].

إذن فالدعوة لتجريم الزواج الكهنوتى كان يعزى فى جزء منه لكره النساء والخوف منهن بمقتضى ما ورد وتكرر مرارًا فى سفر الرؤيا. فهناك مثلاً بيتر داميان وهو مصلح كنسى أبيض من القرن الحادى عشر يخاطب زوجات الكهنة الموقرات قائلاً: «يا لحم إبليس الشهى، ذلك المطرود من الجنة» ويدينهن جميعًا بوصفهن «سم العقول وموت الأرواح ورفاق الخطيئة وسبب هلاكنا»[٩]. بل إنه كان يعتبر النسوة جميعًا أخوات «زانية بابل العظيمة»، وكان غضبه يدفعه لتجاوزات كلامية لا تقل حقدًا عن أسوأ فقرات سفر الرؤيا. فيسب بيتر النساء بعبارات مثل «أحذركن يا نساء العدو القديم، أيتها البغايا والخنزيرات، أيها البوم الناعق، يا بوم الليل ومصاصات الدماء والذئبات، تعالين واسمعننى أيتها الزانيات العاهرات بقبلاتكن المتهتكة وأسرتكن التى يتمرغ فيها الخنازير السمان وآرائكن التى تتقلب فيها الأرواح النجسة»[١٠].

وكان من خطايا الكنيسة الأخرى «السيمونية»، أى بيع المناصب الكنسية ومقايضتها بغرض التربح بين الشخصيات الملكية والأرستقراطية والطبقة العليا وكبار

رجال الدين. وكان للسياسة دورها فى هذا المجال أيضًا ؛ إذ كان البابوات يحرصون على سلطتهم التى تخولهم حق تعيين الأساقفة والكرادلة وعزلهم وكانوا ينقمون على الحكام إذا حاولوا انتزاعها منهم. فمن المستبعد على أسقف يدين بمنصبه ولقبه للملك أن يتخذ جانب البابا فى الصراع بين الكنيسة والدولة، والذى شاع فى أواخر العصور الوسطى. ولكن صحيح أيضًا أن من تربحوا من مناصبهم الكهنوتية كان يسهل إغراؤهم بإنفاق ثرواتهم على حياة الترف والمجون. ووصلت السيمونية حتى إلى البابوية ؛ فيقال إن البابا جريجورى السادس (توفى ١٠٤٨م)، مثلاً، ابتاع منصبه على عرش البابوية من البابا الذى سبقه بينيديكت التاسع فى مقابل ألفى جنيه من الفضة.

هذه النقائص والعيوب الإنسانية بين رجال الدين كبيرًا وصغيرًا أطلقت ما عرف بـ«الإصلاح الجريجورى»، وهو مجموعة كبيرة من التجديدات والتحسينات بلغت مدى حرجًا فى عهد البابا جريجورى السابع. وأمد سفر الرؤيا البابا جريجورى بترسانة لغوية يبرر بها مراسيمه. فأعلن أنه «كلما دنا عهد عدو المسيح زاد ضراوة فى سعيه لهدم العقيدة المسيحية»[١١]. والحافز نفسه لتطهير المسيحية ـ «توق لحياة إنجيلية مثلى تقوم على الاقتداء بالحياة التى عاشها يسوع وأتباعه»[١٢] ـ هو الذى دفع فرانسس أسيسى (٨١/ ١١٨٢ ـ ١٢٢٦م) لإنشاء الطريقة الرهبانية التى أوحت لمسيحيى العصور الوسطى بأن يتساءلوا: «ماذا كان يسوع ليفعل؟».

فنشبت هنا حرب حضارية أخرى استُغل فيها سفر الرؤيا كمصدر للأسلحة الكلامية. ففى حين تناحر البابوات فيما بينهم على السلطة الدنيوية، تطلع رهبان وقساوسة من أمثال فرانسس أسيسى المعروف بـ«بوفيريللو» «الغلبان» إلى تبسيط المسيحية وتطهيرها بتجريد الكنيسة من ثرائها وأبهتها المفسدين. ولجأ كلا الفريقين لسفر الرؤيا لتبرير رؤيتهما للنهج القويم للحياة المسيحية فى الدنيا كما هى، لا فى الحياة الآخرة. بل إن الحالة المؤسفة للكنيسة لا الحروب والمجاعات والأوبئة وغيرها من العلامات التقليدية لنهاية العالم هى التى عجلت بثورة فى قراءة سفر الرؤيا.

كان صانع الثورة الرؤيوية فى أوروپا الوسيطة راهب صاحب رؤى يدعى يواقيم الفيورى (١١٣٥ ـ ١٢٠٢م). نشأ يواقيم وتعلم ليعمل كموظف فى البلاط الملكى

للملك النورماندى فى جنوبى إيطاليا، إلا أنه انجذب لحياة «الزاهد الجوال» التى دفعت يوحنا إلى كنائس آسيا الصغرى السبع. فعمل يواقيم نذورًا رهبانية ثم أنشأ فيما بعد ديرًا بالأطراف الوعرة لريف كالابريا، حيث شرع فى درس النصوص المقدسة فى محاولة لكشف الأسرار الإلهية الكامنة فيها(١٣).

وعندما شرع يواقيم فى تدارس سفر الرؤيا، كان يأمل فى العثور على «مفتاح أحداث الماضى ومعرفة الأحداث القادمة وفتح ما استغلق وكشف ما خفى» على حد تعبيره(١٤). ولكنه لم يكد يبلغ الفقرة العاشرة حتى أوقفته ألغاز سفر الرؤيا كـ«الحجر الذى يوصد القبر»(١٥). وكغيره من أصحاب الرؤى، تطلع يواقيم لرؤيا خاصة به، وكان له ما أراد. فبعد سنة من الدعاء والابتهال، حسب قول يواقيم نفسه، حدث التجلى فى صباح يوم الفصح فى سنة ١١٨٤م. وفيما يشبه التجربة التى يصفها روبرت جريفز بعد ذلك بثمانية قرون، أخذ النص المحير يعتمل فى رأس الراهب الوسيط.

يقول يواقيم فى إشارة إلى يسوع المسيح بالكلمات الرمزية نفسها التى يستعملها يوحنا فى سفر الرؤيا: «فى حوالى منتصف صمت الليل على ما أتذكر وفى الساعة التى يعتقد أن «أسد سبط يهوذا» بعث فيها من موته وبينما كنت أتأمل، فجأة رأيت بعينى عقلى شيئًا من كمال هذا السفر ومن التناغم التام للعهدين القديم والجديد»(١٦).

وما إن نال ما يسمى «نعمة الفهم» حتى شرع فى استخلاص كافة المعانى الجديدة والأكيدة من سفر الرؤيا(١٧). فاقتنع مثلاً بأن تاريخ البشرية ينقسم إلى ثلاث حقب يقابل كل منها أحد أطراف الثالوث: الآب والابن والروح. الحقبة الأولى: دامت حتى صلب يسوع، والحقبة الثانية: كانت تلك التى عاش فيها يواقيم وتنتهى بظهور عدو المسيح، والثالثة: حقبة سلام وكمال روحى لا تبدأ إلا بعد هزم عدو المسيح. ويعبر يواقيم عن اقتناعه بأن المعركة الفاصلة بين الرب والشيطان وشيكة مرددًا كلمات يسوع نفسه، فيقول محذرًا: «لن يحدث هذا فى أيام أحفادك أو فى شيخوخة أبنائك، بل فى أيامك القليلة الشريرة»(١٨).

كان التجديد الثورى الذى أوجده يواقيم، رفضه قصر سفر الرؤيا على النطاق الروحانى، فانشق بذلك على القراءة المعتمدة للنص والتى تعزى لأوغسطين فى عصر

سابق. فكان يرى حتى فى أغرب رؤى سفر الرؤيا نبوءات عن أناس وأحداث بعينهم فى عالم الواقع. فالرءوس السبعة للتنين الأحمر الشيطانى، مثلا، يرى يواقيم أنها ترمز لمضطهدى الكنيسة السبعة عبر قرون من تاريخ الإنسانية ومنهم هيرودوت ونيرون وصلاح الدين المسلم الشهير الذى استرد أورشليم [القدس] من الصليبيين فى سنة ١١٨٧م. والرأس السابعة فى رأيه رأس عدو المسيح الذى لم يظهر بعد (ولكنه سرعان ما يظهر).

يمكن اعتبار رؤيا يواقيم عن آخر الأزمان رؤيا مشرقة وبهيجة؛ لأنه اعتبر المملكة الألفية عهد كنيسة مسيحية تم إصلاحها هنا على الأرض. يقول الصحافى والمؤرخ الإنجليزى داميان طومسن: «عهده الجديد المجيد كان سيجىء فى نطاق التاريخ ومن ثم فهو أكثر مثالية من الألفية، مما أدى لإلقاء اللوم على يواقيم عن كل تجربة مثالية فاشلة من فلورنسا سافونارولا إلى الشيوعية السوفييتية». إلا أن يواقيم كان يعتبر نفسه مصلحًا لا ثوريًّا، وكان مفهومه عن أورشليم [القدس] الجديدة «رؤية كاثوليكية حصرية»[١٩].

قد تكون قراءة يواقيم الجديدة لسفر الرؤيا محيرة كالنص الأصلى نفسه، والحقيقة أن كتاباته لم تجذب قراء كثيرين إلا بعد أن نسخها أتباعه ممن جاءوا بعده وتداولوها، ويعرفون باليواقيميين. ولكن ما إن كسر يواقيم احتكار أوغسطين الساحة، تجرأ من لحقوا به وفسروا رؤى سفر الرؤيا تفاسير أجرأ. فاتهمتهم الكنيسة «بالتنجيم والعيش فى الخيال» ورفضت كتاباتهم بوصفها «نبوءات زائفة ووهمية»[٢٠]. وتم حرق كثرة منهم مع مخطوطاتهم. إلا أن سفر الرؤيا تحول حينئذ إلى سفر مفتوح. يقول برنارد مكجين: «إن اكتشاف كبير الرهبان تفسيرًا جديدًا ظل مؤثرًا طوال قرون يجعل منه القديس الراعى للنقاد لو اعتُمد ولم يتهم»[٢١].

لم يقتصر تأثير يواقيم على الباحثين وعلماء اللاهوت ممن عثروا على كتاباته السرية. وغضب بعض قرائه بسبب لغته الملتهبة، ومنهم كبار رجال الدين ممن رأوا أنفسهم فى تنديده بالمسيحيين الذين «هجروا حضن الأم العفيفة وآثروا عليه حضن الزانية التى تسيطر على ملوك الأرض»[٢٢]. إلا أن قراء آخرين منهم بابوات وملوك

obeikan.com

وصليبيون فى أنحاء أوروبا طلبوه ليكون «مستشارًا رؤيويًّا» لهم وتوسلوا إليه أن يكشف لهم الأسرار الإلهية التى أنعم بها عليه من النصوص المقدسة[٢٣].

فى طريقه إلى الأراضى المقدسة، فى الحملة الصليبية الثالثة فى ١١٩٠ ـ ١١٩١م استدعى ريتشارد قلب الأسد الملك الإنجليزى الأسطورى يواقيم لينبئه بما قد يتنبأ له به سفر الرؤيا من مصير. فأدخل الراهب الشيخ الحزن على قلب الملك الصليبى بوحه له بأن يوحنا عندما رأى «وَحْشًا طَالِعًا مِنَ الْبَحْرِ» بسفر الرؤيا، فإنه كان يلمح إلى الجيش العربى الذى يوشك ريتشارد على ملاقاته فى معركة أورشليم [القدس]. وبعد ذلك بقليل، طمأن يواقيم ريتشارد بأن يسوع عائد إلى الأرض ليتكفل بالحملة الصليبية الأخيرة ضد المسيح الدجال، أى معركة أرمجدون الموعودة.

ورد فى الرسالة البروتستانتية التى ترجع للقرن السادس عشر أن يواقيم قال للملك ريتشارد: «(قال) وهذا عدو المسيح ولد فعلاً فى مدينة روما، وينبغى أن يعلو نجمه فيها حسب المشهد الرؤيوى، ثم ينكشف الرجل الشرير ليلتهمه السيد بنفخات من فمه ويقضى عليه بنور مجيئه الساطع»[٢٤]. أى أن عدو المسيح سيكون البابا نفسه.

وهناك قارئة أخرى لسفر الرؤيا حققت نجومية فى القرن الحادى عشر هى هيلديجارد بينجن الراهبة البينيديكتية التى تميزت كصاحبة رؤى ومبشرة ومؤلفة رسائل رؤيوية ونصوص متنوعة فى الطب والموسيقى والتاريخ الطبيعى. بل إن رسالتها عن استعمال الأعشاب فى علاج الأمراض لا تزال «من الوثائق الأساسية فى الصيدلة الغربية»، ومؤلفاتها الموسيقية «تجعل من هيلديجارد الشخصية الطبية الوحيدة التى لا بد من أن تشتمل قصة حياتها على قائمة تسجيلات»[٢٥]. ومثل يواقيم الفيورى، كانت هيلديجارد ترى أن الشر الأكبر فى المسيحية الارتماء فى أحضان الكنيسة حيث يستغل أعضاء الإكليروس مناصبهم فى التربح والثراء، ثم استغلال ثرائهم فى إشباع شهواتهم الحسية. مع يواقيم وهيلديجارد، يبدأ تراث استغلال سفر الرؤيا سلاحًا ضد الكنيسة نفسها.

كانت هيلديجارد ترى بعض المشاهد الغريبة عندما تروح فى إغماءاتها، ومنها صورة امرأة جميلة تضع وحشًا شائهًا فى صحن كنيسة. كتبت هيلديجارد فى سردها

obeikan.com

الرؤيا التى واتتها وهى تصلى: «من فرجها برزت رأس وحشية شديدة السواد وبها عينان متوهجتان وأذنان كأذنى حمار، وفتحتا أنف وفم كفتحتى أنف وفم أسد. وأخذت الرأس الوحشية تنسلت من مكانها محدثة صوت تهشم جعل كيان المرأة يرتجف بكامل أعضائه»[٢٦].

من الواضح أن رؤيا هيلديجارد مستوحاة من سفر الرؤيا «توفيق نصى ثورى» بين صورة المرأة المتسربلة بالشمس المتوجة بالكواكب التى تضع «المخلِّص»، وصورة زانية بابل التى تزنى مع الملوك وتمتطى ظهر وحش شيطانى ذى سبعة رءوس[٢٧]. إلا أن هيلديجارد مثل معاصرها يواقيم تضفى على هذه الرموز معانى جديدة ورهيبة: فالمرأة فى مخاضها تمثل الكنيسة، والوحش فى رحمها يمثل المسيح الدجال. ولمزيد من الإيضاح سيظهر عدو المسيح من قلب الكنيسة نفسها كوليد يخرج من رحم أمه «فصل عنيف كأنه اغتصاب عكسى»[٢٨] بتعبير برنارد مكجين. وهيلديجارد التى تعيش فى عفة كأنها «عروس المسيح» بين جدران أحد الأديرة ترتدى ثوب عرس لحضور طقس عشاء ربانى تلجأ إلى رمزية جنسية فجة وصريحة للتعبير عن هواجسها تجاه مشيئة الرب ومصير البشرية فى آخر الأزمان: «شخصية الشيطان الذكورية الشريرة تهاجم الإنسانية، الأنثى عروس المسيح، متمثلة فى حواء ومعبد اليهود ومريم والكنيسة»[٢٩].

وحين كانت هيلديجارد تعظ فى الكنائس والكاتدرائيات ـ وهو دور غريب تمامًا على امرأة، ولا سيما على راهبة متوحدة فى أوروبا العصور الوسطى ـ كانت أكبر الخطايا فى نظرها السفه الجنسى، والتربح بين أعضاء الإكليروس. وقدمت فهمًا جديدًا للطريقة التى ستتجلى بها المعركة الفاصلة بين الخير والشر فى آخر الأزمان، بوصف يوم فى المستقبل غير البعيد حين يقوم «الرعاع النزقون» و«الأمراء الجشعون» «بإسقاط أعضاء الإكليروس ويطاردونهم وينهبون ثرواتهم». وحينها سترى الدنيا «فجر العدل»، ورجال الدين بعفتهم وفقرهم مرة أخرى كما أراد لهم الرب أن يكونوا «سيتألقون كالذهب فى أنقى صوره»[٣٠].

والغريب أن عظات هيلديجارد لم تدنها الكنيسة. فكانت هيلديجارد صادقة ومقنعة لدرجة أن كبير الأساقفة الذى كانت تعيش وتعمل تحت سلطته وجد نفسه مضطرًّا

للتسليم بأن رؤاها «من عند الرب»، وكذلك فعل البابا نفسه. بل إن راهبًا تم تكليفه بالعمل كاتبًا لها حتى يتسنى تسجيل النبوءات الصادرة عن عقل هيلديجارد ومن فمها فورًا وبكل دقة، وكانت لها مراسلات مطولة مع البابوات والأباطرة والملوك ورجال الكنيسة فى كافة أرجاء أوروبا. وهكذا تذكرنا هيلديجارد مرة أخرى بأن الشخصية الكارزمية لرجل كانت أو لامرأة قد تفلح فى جذب انتباه الجمهور باستحضار قوة سفر الرؤيا. فإذا كان الناس مستعدين للتسليم بأن يوحنا وهب نعمة النبوءة فلم لا يحدث ذلك مع هيلديجارد أيضًا؟

ولكن ليس كل قارئ لسفر الرؤيا كان يستطيع أن يشكو من الكنيسة بالقدر نفسه من الحصانة. فالجناح المتطرف من جماعة الفرنسيسكان والذين يعرفون بالغيورين أو الروحانيين اقتدى بكل من يواقيم وهيلديجارد فى استحضار «زانية بابل» وعدو المسيح فى إدانتهم الفساد الذى رأوه داخل الكنيسة نفسها. وكذلك فعلت البجوينيات وهن جماعة متميزة من النسوة، شنن حملتهن الصليبية الخاصة من أجل التطهير والإصلاح توقعًا لآخر الأزمان. وبتزايد عددهن وعلو نجمهن بدأن فى جذب الانتباه غير الرقيق «للكنيسة المحاربة المنتصرة». فكان المبشرون الرؤيويون ومعهم اليهود والمسلمون والزنادقة المسيحيون المبعدون أناسًا ذوى شأن خاص بالنسبة لمحاكم التفتيش المقدسة.

عقد البابا يوحنا الثانى والعشرون (١٢٤٤ ـ ١٣٣٤م) مجلسًا بابويًّا فى سنة ١٣١٧م لمناقشة حالة تبصر رؤيوى على درجة خاصة من التعقيد بين «الروحيين» من طائفة الفرنسيسكان. وكان المتهم كتابًا لا بشرًا، تعليق على سفر الرؤيا لراهب فرنسيسكانى يدعى پيتر چون أوليڤى (١٢٤٨ ـ ١٢٩٨م) ادعى أن الكنيسة التى أسسها تلاميذ يسوع المسيح «فسدت من الرأس إلى القدمين وتحولت إلى بابل جديدة»[٣١]. وكان مؤلف الكتاب نفسه مات، لكن كتابه ثبت أنه مذنب بالهرطقة بناء على اتهامات بأن ستين من عقائده «تخالف الديانة»[٣٢]. وأحرقت نسخ من كتابات أوليڤى وأعدم بعض من أتباعه بجرم مطالعة فكره الثورى عن آخر الأزمان.

كان أوليڤى من أبرز أعضاء فرقة «الروحيين» وأشدهم تأثيرًا. وبوحى من سفر

الرؤيا، اعتبروا فرانسس أسيسى مؤسس طائفة الفرنسيسكان «ملَك الختم السابع»[٣٣] وتصوروا أن فرانسس ودومينجو دى جوزمن (١١٧٠ ـ ١٢٢١م) مؤسس طائفة الدومينيكان هما شاهدا آخر الأزمان. وعندما أدان البابا يوحنا الثانى والعشرين «الروحيين» بالهرطقة، لم يفلح إلا فى تأكيد اقتناع الرهبان الغيورين بأنه هو الهرطيق الحقيقى بل هو عدو المسيح نفسه.

ربما أصدر يواقيم الفيورى تحذيرًا غامضًا عن عمد من أن عدو المسيح سيأتى ليعتلى العرش البابوى مثلاً، لكن أحد «الروحيين» وهو راهب متطرف يدعى أوبرتينو دا كاسالى (١٢٥٩ ـ ١٣٣٠م) لم يتردد فى تحديد أسماء. فقال إن الوحش الطالع من بطن الأرض والوحش الخارج من البحر والتوأمين الشيطانيين فى سفر الرؤيا كلها فى الحقيقة رؤى عن اثنين من بابوات عصره هما بونيفاتشى الثامن وبينيديكت الحادى عشر، وكلاهما عدو لدود ومضطهد نشط لفرقة «الروحيين». واقتداءً بمؤلف سفر الرؤيا، أوَّل دا كاسالى القيمة العددية لأحرف اسم بينيديكت الحادى عشر باعتبارها الأعداد الرهيبة للوحش، أى ٦٦٦[٣٤].

وهكذا كانت فرقة «الروحيين» ثورية لا إصلاحية. فهناك، مثلاً، چون روبيسيسا (١٣١٠ ـ ١٣٦٦م) وهو راهب فرنسسكانى من جنوبى فرنسا اشتهر بـ «الأخ چون» كان يرى أن كافة الرزايا المشار إليها بسفر الرؤيا ستحل بالعالم عقابًا على خطايا الكنيسة. وبوحى من رؤى خاصة به، كان يرى فى العرب والأتراك والتتار الذين كانوا يهددون العالم المسيحى الوسيط جيوشًا شيطانية احتشدت لمعركة أرمجدون الفاصلة. وتنبأ بأن أواخر الأيام ستأتى بما سمى «بدعة رهيبة»، حيث يقوم عوام الناس بأخذ ثأرهم الدموى بأنفسهم من الطبقة العليا بكاملها والإكليروس وبالثورة على الأغنياء والمتنفذين «كدود الأرض يلتهم الأسود» وبهدم القصور والكاتدرائيات بأيديهم[٣٥].

يقول چون روبيسيسا فى «رسالة فى الضيقة»: «سيمتلئ العالم بالنقمة على الغرور بالثروة، وسيثور المقهورون بصورة مفاجئة وغير متوقعة. وسيسقط العديد من الأمراء والنبلاء والكبراء من علياء كبرهم وجلال ثرائهم، وستفوق محنة النبلاء كل تصور»[٣٦].

وأضفى على نبوءته عما يمكن اعتباره ثورة اجتماعية كافة شراك سفر الرؤيا الغيبية. فبناء على التجلى الذى حل به «بينما كان الخورس ينشد «تسبيحة الشكر» فى شعيرة الصباح لوليمة العذراء»[٣٧] تنبأ «الأخ چون» بظهور عدوين للمسيح، أحدهما بجناح المسيحية الشرقى فى سنة ١٣٦٥م والآخر بغربها فى سنة ١٣٧٠م. وسيُرفع أحد الرهبان الفرنسيسكان إلى عرش البابوية، وسيقوم البابا الجديد بتعيين ملك فرنسى على عرش إمبراطورية عالمية. وسيشن كلاهما ـ البابا والإمبراطور ـ حربًا على عدوى المسيح ويرأبان الصدع بين الكنيستين الشرقية والغربية، ويدعوان اليهود لعشاء ربانى مع المسيحيين.

كان أكبر ما فى جرأة چون النبوئية اقتناعه بأن الشعب اليهودى سيصبح «شعب الرب الاستعمارى الجديد». وهنا كانت بدعة أخرى. ففى حين زخرت المسرحيات الغامضة بأوروپا الوسيطة بالفرية القديمة التى ترى أن عدو المسيح سيولد من نسل إبليس وبغى يهودية تنبأ «الأخ چون» بدور رفيع للشعب اليهودى فى آخر الأزمان. فسيعاد بناء أورشليم [القدس] لتكون العاصمة المجيدة لدين موحد متطهر مع قيام المملكة الألفية على الأرض. وباعتذارات صريحة لأوغسطين الذى حذر من أخذ حكم المسيح على الأرض بمعناه الحرفى، أكد چون أنه تلقى رؤيا إلهية خاصة به حول موضوع «سبت الألف سنة» وأن رؤياه عن المستقبل «مؤكدة وقاطعة»[٣٨].

وازداد هجوم «الأخ چون» على الكنيسة ضراوة حتى اضطر رؤساؤه فى طائفة الفرنسيسكان الإصلاحية لحبسه بأحد سجونهم، وفى النهاية حاكمه المجلس البابوى فى أفينيون بتهم الهرطقة. ومع أنه لم يُحكم عليه بالإعدام من جانب السلطات الكنسية الحذرة التى بدا واضحًا أنها مستعدة لقبول فكرة أنه قد يكون على اتصال بالرب فعلاً، فإن الراهب الثائر ظل فى محبسه بقية عمره، ودوَّن كافة رسائله الرؤيوية الباقية وراء القضبان[٣٩]. ومع ذلك فإن نسخًا من «رسالة فى الضيقة» وجدت طريقها للتداول فى أرجاء أوروپا بنصها اللاتينى الأصلى وكذلك فى ترجمات فرنسية وألمانية وتشيكية وقشتالية، فكانت نموذجًا قديمًا من أفضل المنشورات المستوحاة من سفر الرؤيا مبيعًا فى العصور الوسطى[٤٠].

كان پيتر چون أوليڤى ـ «الأخ چـون » ـ مثل مونتانوس والنبيتين بالقرن الثانى وأمثالهم من الإخوة والأخوات من ذوى العقلية المتشابهة ، تعتبرهم الكنيسة محرضين خطيرين. فبوصول خطبهم ورسائلهم لجماهير عريضة فى أنحاء أوروپا الوسيطة اعتُبر المتطرفون الرؤيويون تهديدًا مباشرًا لكبار رجال الكنيسة ممن وصموا بأنهم أدوات بيد الشيطان ومسوخ لعدو المسيح. فاحتدمت الحرب الثقافية بين المدافعين عن الكنيسة والإصلاحيين ، وتحولت إلى صراع مفتوح أريق فيه الدم وأزهقت أرواح.

ميز « دليل مفتش العقائد » الذى أنشأه برنارد چى فى سنة ١٣٢٤م من عرفوا بـ« البجوينيات » كنموذج لما قد ينجم من خطأ إذا ما تجاسر المسيحيون على قراءة سفر الرؤيا قراءة خاصة. يقول چى : « وهن أيضًا يزعمن أن نهاية الحقبة السادسة للكنيسة وهى الحقبة التى نعيشها الآن والتى تبدأ بالقديس فرانسس والكنيسة الحسية وبابل والزانية العظيمة ، سينبذها المسيح كما نُبذ « معبد اليهود » لصلبه المسيح. ويزعمن أن الكنيسة الحسية وهى الكنيسة الرومانية ستهلك » . ويرى أن مثل هذه « المغالطات والآراء المهلكة » اكتشفتها « محكمة التفتيش المعتمدة ومن خلال إقرارات واعترافات » ـ أى بالاستجواب بالتعذيب ـ لكن كبير المفتشين يسمح « للعديد منهن باختيار الموت حرقا على التبرؤ مما يعتقدن » (٤١).

والحقيقة أن چى يسلم بأن البجوينيات كن واثقات من انتصارهن فى النهاية على عدو المسيح « الروحى أو الصوفى » ـ أى الكنيسة نفسها ـ وعلى « عدو المسيح الأكبر الحقيقى » الذى « ولد فعلا » وسيظهر للعلن فى سنة ١٣٢٥م « فى رأى بعضهن » أو ربما فى سنة ١٣٣٠ أو ربما ١٣٣٥م. ويقول چى : « ويزعمن أن عدو المسيح الأول هو البابا الذى تعانى طائفتهن فى ظله الآن الاضطهاد والملاحقة » . « كما يقلن إن « الروحيين » سيحولون العالم بأسره إلى دين المسيح عقب وفاة عدو المسيح ، وأن العالم كله سيسوده الخير والرحمة ، بحيث لا يكون هناك حقد أو خطيئة فى نفوس الناس فى تلك الحقبة باستثناء الخطايا العارضة من قبل البعض » (٤٢).

وراء تشدقات كبير المفتشين ، هناك نموذج محير لما كان يعتبر هرطقة فى كنيسة العصور الوسطى. فالبجوينيات نسوة كن يعشن حياة جماعية ، ويراعين العفة بكل

obeikan.com

صرامة، ويكسبن قوتهن بالتمريض والتدريس، ويقضين بقية أيامهن فى الصوم وإماتة النفس والتأمل الصوفى والحدس الرؤيوى. وكانت ديار البجوينيات التى ظهرت فى كل من بلچيكا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا كانت حلاً عمليًّا لمأزق نسوة عزباوات بلا انتماءات وبلا حماية. ولا غرو أن أثارت البجوينيات شكوك محكمة التفتيش، ولكن ليس لمجرد أنهن كن يتهمن الكنيسة بكل جرأة بأنها «بابل» و«الزانية العظيمة». فكان ما يمثل تهديدًا لرجل مثل برنارد چى أنهن نسوة وضعن أنفسهن وراء سلطة الآباء والأزواج[٤٣].

توصل أحد المجالس الكنسية فى سنة ١٣١٢م إلى ما يلى: «قيل لنا إن بعض النسوة يعرفن بالبجوينيات أصبن بضرب من الجنون، ويجادلن فى الثالوث الأقدس والجوهر الإلهى، ويعبرن عن آراء فى أمور العقيدة والشرائع تتنافى مع العقيدة الكاثوليكية فيخدعن العديد من البسطاء. بناء عليه قررنا ورسمنا بحظر نهج حياتهن واستبعادهن جميعًا من كنيسة الرب»[٤٤].

ومن بين النسوة اللائى وقعن فى قبضة محكمة التفتيش مارجريت بوريت (توفيت ١٣١٠م) مؤلفة «مرآة الروح البسيطة» الذى تبين أنه عنوان ساخر. واشتهرت بأنها بجوينية، ولكن يبدو أنها عاشت وعملت مبشرة جوالة «وحيدة وهائمة» و«شريدة أصلاً»[٤٥]. وفى النهاية لفتت السلطات الكنسية، وحين تحدت تحذيراتهم بأن تصمت تم تحويلها إلى محكمة التفتيش وسجنت فى پاريس لمدة ثمانية عشر شهرًا، ثم مثلت أمام محكمة تتألف من واحد وعشرين عالمًا لاهوتيًّا من أعضاء هيئة التدريس بجامعة پاريس. وكان المدافع الوحيد عنها رجلا فى زى «ملاك فيلادلفيا» وهو أحد شخوص سفر الرؤيا ـ يقول يوحنا عن هذا الملاك: «هَئَنَذَا قَدْ جَعَلْتُ أَمَامَكَ بَابًا مَفْتُوحًا وَلاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُغْلِقَهُ»[٤٦] ـ ولكنها كافأته على جهوده بأن اتهمته بالهرطقة. فتبرأ محامى مارجريت منها لكى ينجو بحياته، أما هى فأدينت وحكم عليها بالحرق على العصا.

والمصير نفسه حل بناسكة تدعى نا برو بونيتا (١٢٩٠ ـ ١٣٢٥م) كانت تقول لأتباعها إن يسوع أخذها إلى السماء «بالروح» فى «الجمعة الحزينة» فى سنة ١٣٢١م. وفرانسس أسيسى طبقًا لرؤياها هو الملاك الذى ورد ذكره بسفر الرؤيا بوصفه حامل

« خَتْمِ اللهِ الْحَى » ، وپيتر چون أوليڤى هو الملاك الذى « وَجْهُهُ كَالشَّمْسِ » والذى يعلن أن « لاَ يَكونُ زَمَانٌ بَعْدُ »(٤٧). وكانت تزعم أن يسوع أرسل هذين الرجلين الصالحين شاهدين رؤيويين ، إلا أن مشيئته الإلهية أحبطها عدو المسيح بحلوله فى صورة البابا يوحنا الثانى والعشرين. وكانت نا برو بونيتا تؤكد أن الحقبة الثالثة والأخيرة من التاريخ البشرى وشيكة حيث سينهزم عدو المسيح والبابوية نفسها « ستُلغى للأب » مع كافة الشرائع عدا الزواج(٤٨).

وكل ما نعرف عن نا برو بونيتا محفوظ فى سجل استجوابها ومحاكمتها. وكان يمكن أن تتسرب عبر شقوق التاريخ ككثير غيرها من قراء سفر الرؤيا ممن لا يسعنا إلا أن نخمن المعلومات عن حياتهم ، لو أنها أفلتت من انتباه محكمة التفتيش. تقول محكمة التفتيش فى قرارها : « تم تحذيرها ودعوتها وحثها مرارًا فى المحكمة وفى غيرها على دحض كل ما تقدم ، والإقرار بأنه إفك وهرطقة ، فإنها تشبثت بما تقدم وزعمت أنها تتمنى أن تحيا وتموت بما تقدم كأنه الحقيقة ». واستجيب لما تمنت وهى ثابتة على مبدأها وبكل شجاعة ، وتم حرق نا برو بونيتا على العصا مع شقيقتها أليسيت وأحد خلصائهما(٤٩).

يقدم المصير المأساوى لهؤلاء النسوة مثالاً على الثمن الذى كان على المؤمنين الأتقياء أن يدفعوا لقاء قراءاتهم الخاصة لسفر الرؤيا. وبعد وفاتهن واختفائهن بمدة طويلة كان على غيرهن أن يُحرقن حرقا ؛ لأن سفر الرؤيا حثهن على أن يكون لهن رؤاهن الخاصة عن آخر الأزمان. ولكنهن يذكرننا أيضًا بأن سفر الرؤيا كان له دائمًا جاذبية قوية لدى قارئاته كالنبيتين بريسكا ومكسيميليا ، والراهبة صاحبة الرؤى هيلديجارد بينجن ، إضافة إلى باحثات الكتاب المقدس ممن برزن فى الدراسات الحديثة حول سفر الرؤيا. وهى مفارقة أخرى ارتبطت بالرؤيا ، ذلك السفر الذى ينظر مؤلفه إلى المرأة فى خوف واشمئزاز.

ليس للمرأة صورة إيجابية فى سفر الرؤيا نفسه. فمؤلفه كما سبق أن لاحظنا يرهب الحياة الجنسية البشرية ويبدى « بغضًا وخوفًا » من المرأة بصفة خاصة(٥٠). ومن أوضح الصور بسفر الرؤيا ، وأحد رموز الشر الشيطانى عند المبشرين والدعاة على مر القرون

العشرين الماضية «زانية بابل العظيمة». وعلى النقيض فالمرأة البشر الوحيدة التى يذكرها المؤلف بالاسم فى سفره - أى النبية التى تدعى إيزابل - يخصها بالإدانة لأنها «تُغْوِى عَبِيدِى أَنْ يَزْنُوا»[٥١]. ومع ذلك فالنساء من البشر كن من أشد قراء سفر الرؤيا حماسًا له فى وقت عز فيه النسوة اللائى يعرفن القراءة.

وعلى خلاف هيلديجارد - أو أخواتها الأقل حظًّا مثل مارجريت بوريت ونابر وبونيتا - كان معظم نساء العصور الوسطى ممن فتحن سفر الرؤيا يسعين للارتقاء بأنفسهن روحيًّا أو للتسلية بأنواع الإثارة لا لكى تكون لهن رؤى خاصة بهن. ومن النساء الثريات من كن يطلبن طبعات فاخرة للنص بزخارف غنية وصور منمقة لتأملهن الخاص. فظهرت على سبيل المثال «ميلاد عدو المسيح وعصره - The Birth and Time of the Antichrist» وهى رسالة عن آخر الأزمان كتبها أحد الرهبان فى القرن العاشر خصيصًا لامرأة تدعى جيربيرجا، وهى زوجة لويس الرابع ملك الأفرنك. وحقق الكتاب انتشارًا واسعًا فى العصور الوسطى، فظل يُنسخ ويتداول فى أرجاء غربى أوروپا طوال قرون عديدة تلت.

والقصة فى سفر الرؤيا يمكن تناولها كحكاية غرامية مليئة بالدسائس والإثارة أو هكذا يرى الباحثون. فالعديد من الشخصيات والأحداث التى تملأ حكايات الفرسان والفتيات الحزينات يمكن البحث عنها أيضًا فى سفر الرؤيا. والمرأة المتسربلة بالشمس يرقبها تنين متعطش للدم انتظارًا لالتهام وليدها، وينقذها فى النهاية بطل شجاع. ويسوع المسيح أمير متوج على جواد أبيض يخوض الوغى دفاعًا عن شرفها. ونهاية سفر الرؤيا السعيدة تشمل وليمة عرس لملك الملوك وعروسه، وهى مناسبة تسجل تأسيس مملكة ستدوم إلى الأبد بالمعنى الحرفى.

والأشهر من النص التوراتى المثير للجدل نفسه طبعات سفر الرؤيا المختصرة والمبسطة والمصورة، والطبعة الوسيطة لكتاب هزلى مصور من الكلاسيكيات. فكانت للكتب المصورة جاذبية خاصة لدى المسيحيين ممن لم يكونوا يقرءون الكتاب المقدس بنصه اليونانى الأصلى أو بترجمته اللاتينية، وهما الإصداران الوحيدان المتوفران للنصوص المقدسة المسيحية فى العصور الوسطى، أو من لا يلمون بالقراءة والكتابة

أصلاً، وهى فئة كانت تشمل كثرة من النساء. وفوق هذا وذاك فسفر الرؤيا بملائكته وشياطينه ووحوشه ومعجزاته وعلاماته وغرائبه كان منهلاً قديمًا وغنيًّا للفنانين من ألبرت دورر إلى هيرونيموس بوش. والرؤى الغريبة التى رآها مؤلف سفر الرؤيا بعينى عقله تحولت مرارًا إلى لوحات زيتية أو جداريات مائية أو رسوم محفورة على الخشب تبين التصور المسيحى لآخر الأزمان حتى عصرنا الراهن.

إذن فالحدس الرؤيوى لم يقتصر قط على تأملات الرهبان المنعزلين أو على المناظرات بين علماء اللاهوت المتنافسين. وكانت دعوة أوغسطين لقراءة واعية لسفر الرؤيا موضع تجاهل وإعراض من قبل الوعاظ ومؤلفى الرسائل والفنانين والكتبة ممن كانوا يخاطبون جمهورًا أكبر وأكثر صخبًا من جمهور رجال الإكليروس. وكانوا يستعيرون بكل حرية من الأساطير والتراث مما لا وجود له فى الكتاب المقدس ولكنه ارتبط بسفر الرؤيا فى الخيال الشعبى. ومهما بلغت درجة غرابة سفر الرؤيا فهناك أفكار وصور أغنى وأغرب جاشت من الخيال الرؤيوى لهؤلاء من «أصحاب الرؤى والمنجمين» الذين وجدت خطبهم ورسائلهم طريقها إلى الثقافة الشعبية لأوروبا العصور الوسطى.

من أغرب التنويعات على سفر الرؤيا، نص يفترض أنه نشأ مع ما يعرف بـ «عرَّافة تيڤولى». كانت العرافات نسوة أسطوريات من العصور الوثنية القديمة كان القدماء يعتقدون أنهن يوصلن أصوات الآلهة وينقلن الرسائل المنزلة من علٍ. يقول هيرقليطس (حوالى ٥٠٠ ق. م): «العرافة ذات الشفتين المحمومتين، تنطق كلماتٍ كئيبة غير منمقة وغير معطرة، تتسلل عبر القرون بقوى الآلهة»[٥٢]. و«وحى العرافات» وهو مجموعة من أقوال العرافات الغامضة كان وثنيًّا خالصًا. ولكن أنشأ الكتّاب اليهود والمسيحيون فيما بعد طبعاتهم الخاصة من «وحى العرافات» فى محاولة لتحويل العالم الوثنى إلى عبادة الإله الواحد الحق. فعرافة تيڤولى، مثلاً، جعلها كاتب مسيحى مجهول الهوية عرافة يتم استدعاؤها إلى بلاط الإمبراطور تراجن بأوائل القرن الثانى لتفسر له حلمًا قض مضاجع مائة من شيوخ الرومان فى ليلة واحدة.

والحلم كما فسرته عرافة تيڤولى عبارة عن نبوءة معقدة عن آخر الأزمان تضفى

رونقًا جديدًا تمامًا على رؤى سفر الرؤيا. فهى ترى فى وصول رجل طويل بهى الطلعة «متناسق القسمات فى كل أجزائه» يدعو اليهود والوثنيين للمعمودية ويوحد «الإغريق والرومان»، أى جناحى الإمبراطورية الرومانية الشرقى والغربى (أو عالمى المسيحية الشرقى والغربى من منظور العصور الوسطى). وتتنبأ العرافة بأنه سيلحق الهزيمة بجيوش جوج وماجوج ويحكم إمبراطورية عالمية لمدة مائة واثنتى عشرة سنة بالتمام تسودها وفرة فائقة: «كيلة قمح وكيلة نبيذ وكيلة زيت كلها بدينار واحد». إلا أن إمبراطوريته ـ حسب قول العرافة ـ ستنتهى باعتلاء عدو المسيح العرش فى «بيت الرب» فى أورشليم [القدس][٥٣]. تقول كلمات الوحى: «يأتى بعدها إلى أورشليم [القدس]، وبعد أن يرفع التاج عن رأسه ويخلع رداء الملك كاملاً يسلم إمبراطورية المسيحيين للرب وليسوع المسيح ابنه. وسيقصر الرب تلك الأيام من أجل المختار، وسيُذبح عدو المسيح بقوة الرب من خلال ميخائيل رئيس الملائكة فوق جبل الزيتون»[٥٤].

ربما يرجع منشأ عرافة تيڤولى إلى مخطوط مفقود من القرن الرابع، إلا أن الطبعة الوسيطة من النص لم تبدأ فى جذب جمهور عريض من القراء إلا فى القرن الحادى عشر. وهناك حوالى مائة وخمسين مخطوطًا من وحى العرافة التيبورتية وهو اسم آخر عرفت به أيضًا أفلتت من العصور الوسطى، وهو رقم مماثل لعدد مخطوطات «رحلات ماركو پولو» التى كانت من أكثر الأعمال انتشارًا أيضًا فى العصور الوسطى. والمقارنة كاشفة، إذ ينم كلا الكتابين عن أن القراء فى العصور الوسطى كانوا شغوفين بمعرفة أصل العالم الذى يعيشون فيه وما قدر له من مصير.

بعبارة أخرى، ليس كل من عاش فى سنة ١٠٠٠م أو بعدها، كان يساوره اليأس أو الخوف حين يفكر فى آخر الأزمان. بل إن بعض الناس تطلعوا لرؤية المملكة الألفية بأمل وفرحة، وهو موقف من قراءة سفر الرؤيا ثبت أنه أحد التجديدات اللاهوتية الكبرى والباقية فى التاريخ الطويل لسفر يوحنا الصغير.

تشتمل رؤى العرافة التيبورتية على أحد الارتجالات الرؤيوية المصنفة التى أضيفت للخط القصصى لسفر الرؤيا فى العصور الوسطى، وهى فكرة «آخر أباطرة العالم». فهناك ملك ذو بأس شديد ـ كما تقول العرافة ـ سيسيطر على العالم فى أواخر الأيام،

وهى فكرة أثارت الكثير من التكهنات حول أى ملوك أوروپا الوسيطة سيلعب دور «آخر أباطرة العالم» فى آخر الأزمان الوشيكة والمؤكدة. والفكرة لا وجود لها فى سفر الرؤيا بالطبع، ولكن تبين أنها سلاح بلاغى ملائم آخر فى حقبة أصبح فيها قاموس مفردات السفر متداولاً فى السياسة والدعاية.

فالملك الصليبى الألمانى فردريك الثانى (١١٩٤ ـ ١٢٥٠م)، مثلاً، «لم يكن يستنكف أن يستعمل الأساطير المسيحانية عن آخر أباطرة العالم باعتباره مجددًا للمسيحية ومصلحًا للكنيسة لو لاءمته»(٥٥). هذا فى حين أن البابا جريجورى التاسع كان يشير إلى غريمه بأنه «الوحش الطالع من البحر»، «أى عدو مسيح آخر ننتظره وقد أتى وتجسد فى شخص فردريك وفعاله؟»(٥٦)، وأعلن عزله كنسيًّا فى سنة ١٢٢٧م حين تأخر الإمبراطور فى الخروج إلى الأراضى المقدسة. وتبين أن فردريك تم تجريده من كلا اللقبين بعد وفاته بالدوسنتاريا، واستمر العالم بدونه، ولو أن هناك نبوءات ظهرت فيما بعد بأن فردريك سيُبعث كنيرون(٥٧).

ومن التجديدات الرؤيوية الأخرى فى القرن الثالث عشر فكرة «الراعى الملائكى ـ Pastor Angelicus» وهو شخصية حميدة ستحل محل الشخصيات الفاسدة التى احتلت العرش البابوى وتسببت فى كثير من الفزع بين المصلحين الكنسيين. ومن أقدم الإشارات إلى الفكرة ما يطالعنا فى كتابات «روجر بيكن ـ Roger Bacon» (١٢٢٠ ـ ١٢٩٢م) الفرنسيسكانى الإنجليزى الذى اشتهر باهتمامه بالبارود والآلات الطائرة والعلم التجريبى. يقول بيكن: «منذ أربعين سنة، ظهرت نبوءة ورؤى عدة تفيد بأن هذه الأيام ستشهد ظهور بابا سيطهر الشريعة وكنيسة الرب. وبسبب طيبة هذا البابا وصدقه وعدله، سيعود اليونان لطاعة الكنيسة الرومانية وسيتحول القسم الأعظم من التتار إلى الديانة وسيتم القضاء على العرب»(٥٨).

أطلق لقب «الراعى الملائكى» على مصلحين عدة ارتقوا عرش البابوية، ومنهم رجل متميز يدعى سلستين الخامس انتخبه مجمع الكرادلة فى سنة ١٢٩٤م «إما يأسًا أو وحيًا» بعد مأزق دام أكثر من سنتين(٥٩). وكان مرشحًا غير مرجح فى حقبة كان البابا فيها شخصية سياسية وديپلوماسية بقدر ما كان شخصية روحية، وكان سلستين راهبًا

ناسكًا فى الطريقة البندكتية، يترفع عن متاع الحياة وبهرجها الذى كان يحق له أن يغنمه وكان يعيش فى كوخ متواضع بناه بيده على أراضى القصر. ولم يتول سلستين الحكم إلا من يوليو إلى ديسمبر ثم تنازل عن منصبه وانتهى به الحال سجينًا لخلفه البابا بونيفاتشى الثامن الذى سارع بإعلان الحرب على طائفة «الروحيين».

وهكذا فربما اعتُبر سفر الرؤيا فى نظر المسيحيين الأتقياء سفرًا مؤلفه الحقيقى يسوع المسيح، لكن مكانته التى بلغها بصعوبة كأحد النصوص المقدسة لم يمنع الفنانين والحكواتية وكتّاب الخيال والحكايات الخرافية والوعاظ والدعائيين جيلاً بعد جيل من إضافة لمساتهم الخاصة إلى السيناريو التوراتى. وهى عادة بدأت فى القدم وبلغت درجة من الازدهار فى ذروة العصور الوسطى، ولكنها لم تنته ـ كما سنرى ـ إذ يبدو أن الطابع الحالم لسفر الرؤيا نفسه يدفع القارئ ويدعوه لابتكار رؤى خاصة به.

إذن فسفر الرؤيا كان يقدم طريقًا لفهم الأفراد والأماكن والظواهر الغريبة التى لفتت العالم المسيحى الغربى من خلال مغامرات الصليبيين والتجار والمستكشفين (ومحنهم) فى أواخر العصور الوسطى. وهنا نجد صدعًا آخر فى جدار ما شاع ورسخ عما يعرف بالعصور الوسطى، فلم يكن العالم الوسيط منحصرًا فى البلدات المسورة والعزب الإقطاعية والأديرة المنعزلة بأوروبا نفسها، وكان الخيال الوسيط يلجأ لنصوص قديمة ومألوفة كسفر الرؤيا حين يواجهه شىء جديد غير مألوف.

هناك مثلاً مخطوط وسيط بعنوان: «رحلات مانديفيل» موضوعه حكاية عن جيوش جوج وماجوج الشيطانية، كانت هذه الجيوش احتجزها الإسكندر الأكبر فى شِعب بجبال القوقاز بآسيا، أو هكذا تقول الأسطورة، ولهذا السبب فالجدار الذى يحجزهم يسمى «بوابة الإسكندر». وجوج وماجوج فى الحقيقة هم أسباط بنى إسرائيل العشرة المفقودة حسب أحداث الحكاية التى تقول إن اللغة العبرية حفظتها طوائف اليهود بأوروبا وتدارستها حتى يتسنى لهم أن يتواصلوا مع إخوتهم الذين طال تيههم حين يفرج عدو المسيح عنهم ليخوضوا معركة أرمجدون. لكن الحكاية كانت بالنسبة لقراء «رحلات مانديفيل» تعنى أكثر من مجرد حكاية شعبية؛ فهناك ربط بين جوج وماجوج وقطعان التتار وجيوش العرب التى هددت العالم المسيحى على جبهته الشرقية.

هذا التوفيق النصى الحالم بين النبوءات التوراتية والواقع المحير يطالعنا أيضًا فى «علامات القيامة الخمس عشرة»، وهى قائمة بعلامات وآيات ـ زلازل وانفجارات وشهب وغرائب متنوعة أخرى ـ تدل على حلول آخر الأزمان. والنص الذى يعزى فى العادة لـچيروم ـ ولكنه ظهر أول مرة فى أيرلندا بالقرن العاشر ـ بقى فى مائة وعشرين مخطوطًا وبلغات عدة. وهو يقول إن أية ظاهرة طبيعية ـ غريبة بصفة خاصة ـ قد تحدث إثارة رؤيوية بين من ينتظرون ويرقبون نهاية العالم.

إذا ولدت بقرة أو أتان عجلاً به عيوب خَلقية غريبة، مثلاً، فإن قارئ سفر الرؤيا فى العصور الوسطى قد يرى معانى رؤيوية فى ظهور المخلوق الشائه. فما عرف بـ «العجل الراهب» أو «الحمار البابوى» شاع وصفهما بأنهما من علامات «رجس الكنيسة الرومانية وقرب القيامة»(٦٠). وكانت رؤية الضوء السماوى الذى عرف فيما بعد بمذنب هالى يعد فى التصور الشعبى تحقيقًا لرؤى يوحنا بسفر الرؤيا حيث يقول: «ثُمَّ بَوَّقَ الْمَلاَكُ الْخَامِسُ فَرَأَيْتُ كَوْكَبًا قَدْ سَقَطَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ وَأُعْطِى مِفْتَاحَ بِئْرِ الْهَاوِيَةِ»(٦١).

كانت المخيلات الرؤيوية مهما بلغت غرابتها أو تشوشها قادرة على اتخاذ سمة الحقيقة المتكشفة. فما يعرف بـ «نبوءة طرابلس» أو «نبوءة أرز لبنان» ظهر أول مرة فى كتب الأخبار الإنجليزية بأوائل القرن الثالث عشر كقراءة للأبراج الفلكية. وكلمات النبوءة تبدو للقارئ المعاصر أقرب للرطانة:

«أرز لبنان السامق سيُقطع، والمريخ سيسود على عطارد والمشترى، وعطارد سيكمن فى انتظار المشترى فى الأشياء كلها. سيكون هناك إله واحد، أى أسقف واحد. وسيرحل الإله الثانى. بنو إسرائيل سيتحررون من الأسر فى غضون إحدى عشرة سنة. وسيظهر شعب من الرحل سيعتبر بلا قائد. ويل لرجال الإكليروس ـ مذهب جديد سينشأ وتقوى شوكته! ويل للكنيسة ـ فلتسقط! لن يكون هناك تبديل فى العقيدة أو الشرائع أو الممالك»(٦٢).

لكن قراء العصور الوسطى السذج رأوا فى نبوءة طرابلس رؤيا دقيقة عن جيوش

المغول التى اجتاحت روسيا من صحارى وسط آسيا فى سنة ١٢٣٧م وتحقيقًا لنبوءات آخر الأزمان. يقول نص سفر الرؤيا : «ثُمَّ سَكَبَ الْمَلاَكُ السَّادِسُ جَامَهُ عَلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ الْفُرَاتِ فَنَشِفَ مَاؤُهُ لِكَى يُعَدَّ طَرِيقُ الْمُلُوكِ الَّذِينَ مِنْ مَشْرِقِ الشَّمْسِ»[٦٣].

كان التوقع المؤكد والوشيك لآخر الأزمان بالمعنى الحرفى البحت من حقائق الحياة فى العصور الوسطى. لذا فإن مؤلف «مرآة التاريخ» وهى موسوعة نشرت فى سنة ١٢٥٠م قدم الرؤى المفزعة لهيلديجارد بينجن التى أصبحت تسمى «العرافة الألمانية»[٦٤] بوصفها «تاريخ المستقبل» لا مجرد تكهنات صوفية. ومن المواد الأخرى بهذه الموسوعة ترجمة لحياة عدو المسيح، وهى عبارة عن قائمة بعلامات آخر الأزمان، ووصف للقيامة الأخيرة[٦٥]. ولم يظهر المسيح ولا عدو المسيح بالطبع، إلا أن السرد المطول بكتاب لصاحب رؤى ألمانى يدعى نيكولاس رايماروس نشر أول مرة فى نورمبرج فى سنة ١٦٠٦م يعد دليلاً صريحًا على نهاية العالم كانت تعد دومًا أمرًا محتومًا ووشيكًا : «دليل زمنى ومؤكد ولا سبيل لتكذيبه من النصوص المقدسة والآباء المقدسين بأن العالم سيفنى، وأن اليوم الأخير سيحل فى غضون سبع وسبعين سنة»[٦٦].

لم يكن من حوادث الحياة شىء أكثر دنيوية وألفة من أن يضع امرأ تحت تأثير سفر الرؤيا ووعده بقرب نهاية العالم. يقول ريتشارد إمرسن : «لم يكن القلق من الأشياء الأخيرة قاصرًا على المتعصبين أو الهراطقة، بل كان جزءًا أساسيًّا من معنى العيش فى آخر الأيام»[٦٧].

فمثلاً، بعد أن نصب ويليام الفاتح نفسه على عرش إنجلترا فى سنة ١٠٦٦م، أمر بإجراء مسح لمملكته الجديدة. وكانت النتيجة كتاب قوائم بملاك الأراضى وحيازات الأراضى والأحرار والعبيد والماشية، يعد سجلاً إحصائيًّا بمعنى الكلمة. ولكن تم تذكير عوام إنجلترا بإحدى رؤى يوحنا المتكررة عن يوم البعث بسفر الرؤيا حيث يقول يوحنا : «وَرَأَيْتُ الأَمْوَاتَ صِغَارًا وَكِبَارًا وَاقِفِينَ أَمَامَ اللهِ وَانْفَتَحَتْ أَسْفَارٌ وَانْفَتَحَ سِفْرٌ آخَرُ هُوَ سِفْرُ الْحَيَاةِ وَدِينَ الأَمْوَاتُ مِمَّا هُوَ مَكْتُوبٌ فِى الأَسْفَارِ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ»[٦٨].

يقول بن سيتيا المتخصص فى الأدب الوسيط إن الإحصاء الملكى «لم يعد من الممكن

obeikan.com

فصله عن الخطوب الرؤيوية ليوم القيامة » لكن رعايا ويليام الجدد سموه عفويًّا « كتاب يوم القيامة » فى « تشبيه غير مقصود » بأسفار الشؤم[٦٩].

حتى العلاقة العاطفية المفتضحة كان يمكن اعتبارها كاشفة لمعان رؤيوية. فعندما قام پيتر أبيلارد معلم اللاهوت الساحر بإغراء طالبته الشابة هيلواز وحبَّلها وتزوجها سرًّا ندد عمها رجل الدين المرموق بكاتدرائية پاريس بفعلتهما وخطط لمعاقبة پيتر بإخصائه، ولم يكتف بذلك؛ بل باعد بين العاشقين بحبس هيلواز بأحد الأديرة ونفى پيتر إلى دير آخر. والرسائل المتبادلة بين أبيلارد وهيلواز معروفة بالطبع. وهناك رسالة أقل شهرة كتبها أحد معاصريهما رأى فى أبيلارد الجرىء نذير الشيطان: « پيتر أبيلارد يذهب إلى عدو المسيح ليمهد له طريقه »[٧٠].

كانت الرمزية الرؤيوية سائدة ومؤثرة حتى أن بصمات مؤلف سفر الرؤيا مهما كانت باهتة يمكن إدراكها فى فنون غرب أوروپا وآدابها خلال العصور الوسطى وعصر النهضة وما بعد، من « كايدمون والبلطة المهيبة » فى القرنين السابع والثامن إلى « بترارك وشوسر » فى القرن الرابع عشر و« دون وميلتون » فى القرن السابع عشر. فكان موردريد الوضيع فى الأسطورة الآرثرية، مثلاً، يعتبر بديل عدو المسيح، وكانت ميرلين الساحرة يعزى لها امتلاك بصيرة رؤيوية؛ ففى عمل أدبى يرجع للقرن الثانى عشر يقول الكاتب على لسان ميرلين: « ويل للتنين الأحمر، فدماره وشيك »[٧١]. حتى شكسپير الذى كان يحب أن يستمد خطوط حبكاته من المصادر الوثنية الكلاسيكية لا من الكتاب المقدس يستحضر إحدى الرؤى عن آخر الأزمان كانت تسيطر على أذهان جمهوره فى آخر سنين القرن السادس عشر:

آه، دع الدنيا تنتهى بخستها
واللهيب الموعود فى اليوم الأخير
يرتق الأرض بالسماء[٧٢].

بل إن سفر الرؤيا يظهر فى مواضع غير متوقعة ومستبعدة تمامًا. فالمخطوط الوسيط المعروف بـ « كارمينا بورانا » وهو عبارة عن مجموعة أغنيات وهزليات وقصائد دينية

بذيئة ترجع للقرن الثالث عشر، تضم عمل تعويذة تستحضر «أفعى سامة ملتوية» ذات ذيل جارف[٧٣]، وهى إشارة غير مباشرة لتنين سفر الرؤيا «الأحمر العظيم» بذنبه الذى «يَجُرُّ ثُلُثَ نُجُومِ السَّمَاءِ فَيطَرَحُهَا إِلَى الأَرْضِ»[٧٤]. وجان فيرمير الذى يصور المشهد الدنيوى البسيط لسيدة هولندية تعمل بميزان صائغ فى «السيدة التى تزن اللؤلؤ» (حوالى ١٦٦٠م) يضع على الحائط وراءها لوحة ليوم القيامة فى تلميح لقراء سفر الرؤيا الذين يعرفون أن أحد جياد سفر الرؤيا الأربعة يحمل على ظهره ميزانًا رمزًا ليوم الحساب الذى ينتظر البشر فى آخر الأزمان.

ولعل أفضل مثال لتأثير سفر الرؤيا على مختلف المجالات الفنية والسياسية واللاهوتية هو «الكوميديا الإلهية». إذ تأثر دانتى (حوالى ١٢٦٥ ـ ١٣٢١م) لا بسفر الرؤيا القانونى وحده بل ببعض من أكثر الكتابات الرؤيوية غموضًا من الأعمال المكتوبة التى تنسب زيفًا لشخصيات توراتية لها قداستها، ومنها ما يعرف بـ «رؤيا بولس» التى تصور تلميذ يسوع فى جولة فى الجنة والنار تشبه الجولة المصورة فى كوميديا دانتى. فيستعير دانتى ويستعين برمزية سفر الرؤيا المألوفة ومنها «الزانية العظيمة» والمرأة المتسربلة بالشمس، والحيوانات الأربعة، والتنين ذو الرءوس السبعة، والحملان السبعة والشيوخ الأربعة والعشرون. وينشغل بهذا النوع من الإسقاط الرؤيوى الموجود بسفر الرؤيا نفسه موحيًا بشكل غير مباشر بأن فيليپ ملك فرنسا هو المسيح الدجال، والبلاط البابوى فى أفينيون ـ بابوية منافسة تعرف فى تاريخ الكنيسة باسم «السبى البابلى»[٧٥] ـ هو «أم الزوانى». يقول دانتى فى «الجحيم» مخاطبًا البابا فى أفينيون: «كان اللاهوتى يفكر فى رعاة مثلك حين رأى المرأة الجالسة على الماء وهى ترتكب الفاحشة مع الملوك»[٧٦].

كما يتبع دانتى نموذج سفر الرؤيا بتزيين نصه برمز عددى صوفى وتحدى قرائه أن يتعرفوا على الشخصية التاريخية التى يرمز إليها. يقول دانتى فى «الأعراف»: «فأنا يقينًا أرى... كواكب دانية فى متناول اليد... ستأتى لنا بزمن يقوم فيه «خمسمائة وعشرة وخمسة» المرسل من عند الرب بذبح اللصة والعملاق الذى يقترف الإثم معها». والرمز الحرفى العددى اعتبره الباحثون مساويًا للقيمة العددية لأحرف اسم هنرى

السابع ملك لكسمبورج وهو ملك غامض كان مرشح دانتى لدور «آخر أباطرة العالم» حسب نبوءة العرافة التيبورتية[٧٧].

ولا يقدم دانتى بالطبع سوى مثال واحد على اعتبار سفر الرؤيا مصدرًا للمشاهد والشخصيات والكلمات والعبارات المختزلة والرموز الصوفية ومختلف أنواع التركيبات. وفى الوقت الذى أنشأ فيه «الكوميديا الإلهية» بأوائل القرن الرابع عشر كانت عملية إعادة تصوير وتوجيه النص الأصلى لسفر الرؤيا تراثًا قديمًا وإن لم يكن موضع تقدير دائمًا، وليس بين علماء اللاهوت المتدينين وأدعياء التنبؤ وحدهم.

بل إن مؤلف سفر الرؤيا الذى تراءى له فزع المستقبل القريب وآياته لم يكن يتصور بالطبع ما ستئول إليه الكلمات التى نطق بها أمام قلة من المسيحيين بمنطقة داخلية منعزلة من الإمبراطورية الرومانية منذ قرون عدة. ولكن ما إن بدأ فى العصور الوسطى مشروع إعادة تدوير سفر الرؤيا لأغراض جديدة رهيبة وطائشة أحيانًا، حتى تحول إلى محرك للفن والسياسة والدعاية لا يزال دائرًا بسرعة هائلة حاليًّا.

ومع ذلك فمؤلف سفر الرؤيا هو الذى ضمن طول بقاء سفره الصغير بتضمينه ترسانة من الانتقاد تصلح لكافة الأغراض يمكن للمرء أن يهين بها خصومه بدقة وبصور متنوعة. فالمنطق الداخلى القوى لسفر الرؤيا ـ والتراث الرؤيوى برمته ـ يتخلى عن أى جهد للإقناع ويمحو كل غموض وشك، ويهدد بأقسى عقاب على أدنى انحراف أو اختلاف فى الرأى. والمرء فى ضوء سفر الرؤيا إما على حق أو على باطل، إما خيِّر أو شرير، إما ربانى أو شيطانى. وطبقًا لسفر الرؤيا فإن كل من يكذِّب المؤلف ولو بأدنى صورة فى الدنيا يستحق أحد النعوت المناسبة التى يقدمها النص بوفرة: الوحش، الزانية العظيمة، الشيطان، إبليس، وغير ذلك كثير.

وكان بعض قراء سفر الرؤيا أبطأ من غيرهم فى إدراك مدى ما يمكن الحصول عليه من فوائد من السفر فى حرب ثقافية أو حتى حقيقية. فكما حدث ليواقيم الفيورى وهيلديجارد بينجن، فزع مارتن لوثر (١٤٨٣ ــ ١٥٤٦م) مما اعتبره فساد البابوية الرومانية. وفى سنة ١٥١٧م عندما علق لوثر كتاباته الجريئة على باب كنيسة القصر فى ويتنبرج كان مستعدًّا للانشقاق على الجمود الكاثوليكى الرومانى، ثم على الكنيسة

نفسها بعد ذلك بقليل. إلا أن لوثر ـ الراهب بطائفة القديس أوغسطين ـ نأى بنفسه عن سفر الرؤيا. كتب لوثر فى سنة ١٥٢٢م يقول: «هناك سبب كاف واحد لضعف ما أكنّ له من تقدير، وهو أن المسيح لا يرد له ذكر فيه ولا يُعترف به»[٧٨].

ومضت ثمانى سنوات قبل أن يدرك لوثر كيف يشهر سفر الرؤيا سلاحًا كلاميًّا فى حربه على الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وهكذا «قام المصلح بتغيير اتجاهه»[٧٩]. وكمؤلف سفر الرؤيا لم يكن لوثر يرى أعداءه مجرد أناس على خطأ بل أشرارًا وشياطين، وكان يسمح لنفسه باستلهام أفكاره ورمزيته فى خطبه ورسائله ومراسلاته. فأصبح لوثر يقول عن سفر الرؤيا: «إنه رؤيا عما هو آتٍ لا سيما ما سيحل بالكنيسة من نكبات وبلايا». وبعد أن لم يعد منزعجًا لغياب ذكر المسيح فى نصه أعلن لوثر أن الوحش الذى يتنبأ سفر الرؤيا بمجيئه هو البابوية نفسها[٨٠]. يقول لوثر: «عدو المسيح الحقيقى... قابع يحكم فى مبنى مجلس الشيوخ الرومانى. ولا أدرى ما إذا كان البابا نفسه هو عدو المسيح أم تلميذه، فيالبئوس المسيح (أى الحقيقة) الذى أفسَد وصلَب»[٨١].

وربما تطرف مؤلف سفر الرؤيا بلغة السباب، لكن لوثر وجد سبلاً جديدة أكثر بذاءة لاستغلال السفر كهراوة يضرب بها أعداءه. فمثلاً، يقتدى لوثر بمن سبقه من المصلحين عندما يصف البابوية بـ«الأسر البابلى» للكنيسة، وحين ينعت روما بأنها «بابل أم الزوانى». إلا أنه يلعب بالمجاز بطرق صادمة فعلاً. فيقول فى إحدى رسائله البذيئة: «نحن أيضًا كنا فيما مضى نركز على مؤخرة هذه الزانية اللعينة كنيسة البابا الجديدة. كنا نؤيدها بكل جدية؛ لذا فإنا نادمون على ما بددنا من وقت وطاقة فى هذا الثقب الحقير. ولكن الشكر للرب أن نجانا من الزانية العاهرة»[٨٢].

ليس كل مصلح پروتستانتى وقع فى غرام سفر الرؤيا بهذه الدرجة، وكانت قلة منهم من تنبهوا كأقدم آباء الكنيسة لرمزيته الشديدة والتحريضية. فعلى الضفة الأخرى من نهر الراين فى سويسرا، مثلاً، فرض كل من أولريخ تسفينجلى (١٤٨٤ ـ ١٥٣١م) وچون كالڤن (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤م) قيودًا على الاستعانة بالنص الملتهب «حتى لا يوقظ عفاريت الرؤى»[٨٣]. وأصدر أحد المجامع الكنسية فى ساومور وهى من مراكز النشاط الپروتستانتى بغرب فرنسا، مرسومًا فى سنة ١٥٩٦م يحظر صراحةً عمل أى تعليق

obeikan.com

على سفر الرؤيا بدون موافقة رسمية من سلطات الكنيسة. لكن ثبت أن سفر الرؤيا مفيد للقضية البروتستانتية، حتى أن المئات من التفاسير الجديدة دونت ونشرت فى القرن الذى تلا إعلان لوثر الحرب على الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وما لبث سفر الرؤيا حتى تحول إلى «النص المختار» للمنجمين البروتستانت على مر العصور.

كان المبشرون البروتستانت فى الحقيقة أكثر اقتناعًا من نظرائهم الكاثوليك بأنهم عرفوا موعد انتهاء العالم، ولم يكونوا أقل منهم خطأ بالطبع. فارتقى ميخائيل ستيفل وهو عالم رياضيات ألمانى منبر كنيسة لوثر وأعلن بحساباته أن آخر الأزمان يبدأ فى الثامنة من صباح التاسع عشر من أكتوبر من سنة ١٥٣٣م. وبعد مائتى سنة ظهر واعظ إنجليزى يدعى چورچ بِل لم تحبطه النبوءات الفاشلة التى سبقته فأعلن بيقين مماثل أن يسوع المسيح سيهبط من السماء إلى الأرض فى الثامن والعشرين من فبراير من سنة ١٧٦٣م. وفى ليلة المجىء الثانى الموعودة ظل چون ويزلى مؤسس الكنيسة المنهجية يعظ طوال الليل فى محاولة لتهدئة الجموع القلقة ويهيئهم للإحباط مما اعتبره بحق فجر يوم لا يختلف عن بقية الأيام.

يتخذ التراث الرؤيوى موقفين مختلفين تمامًا من السلوك القويم للمتدينين فى زمن «الضيقة». فسفر دانيال كما رأينا يحض «العقلاء» على المعاناة فى صمت إلى أن ينتقم الرب لنفسه من ظالميهم، لكن «رؤيا الحيوان» تثنى على المؤمنين الذين يشهرون سيوفهم ويقاتلون. وسفر الرؤيا ـ وعلى الرغم من كل ألعابه النارية الكلامية ـ ينحاز لدانيال. فالقديسون الصابرون فى نظر يوحنا يفترض فيهم أن يصبروا فى انتظار الشهادة، ويتطلعون ليوم سعيد تعود فيه «كلمة الرب» «مُتَسَرْبِلَةٌ بِثَوْبٍ مَغْمُوسٍ بِدَمٍ» وفى فمها سيف(٨٤) لتشفى غليلها بانتقام دامٍ.

مع ذلك فليس كل قارئ لسفر الرؤيا فى العالم الوسيط كان يتمكن من كبح الأحاسيس القوية التى تثيرها كلمات آخر أسفار الكتاب المقدس وصوره. فالشوق لآخر الأزمان، والرغبة فى استعجالها كانا يعتملان ـ على حد قول نورمن كون ـ «فى صدور المحرومين والمظلومين والضالين والمضطربين» من ساكنى ما يسمى «العالم السفلى الغامض للدين الشعبى»(٨٥). وكانت كثرة منهم يستحثون على الإمساك بمقاليد أمورهم

فى أيديهم كالحملان من حملة السيوف فى «سفر الحيوان». بل إن هذا هو السبب فى اعتبار سفر الرؤيا نصًّا ذا خطر عند رجال الدين الواعين القدماء منهم والمحدثين.

ومن أقوى الأمثلة على قوة تأثير سفر الرؤيا نجده فى الحملات الصليبية. فالبابوات الذين نادوا فى الجنود المسيحيين أن يستردوا أورشليم [القدس] من حكامها المسلمين، والأمراء والملوك ممن لبوا النداء ربما كانوا يؤمنون بمنطق سفر الرؤيا، إلا أن دوافعهم يمكن اعتبارها جغرافية أكثر من كونها دينية. يقول برنارد مكجين: «كانت الحملة الصليبية الكبرى أصلاً خطة بابوية لإعادة بناء الإمبراطورية المسيحية المتوسطية بزعامة البابا»(٨٦). إلا أن عددًا كبيرًا من عامة المسيحيين فهموا نداء حمل الصليب باعتباره تحقيقًا لنبوءات سفر الرؤيا. فما عرف بالحملة الصليبية الشعبية بل، أيضًا حملة الأطفال الصليبية كانت نواتج عفوية لدفق الحماس الرؤيوى الذى يحرك الرجال والنساء والأطفال على الاندفاع نحو الأراضى المقدسة لاسترداد أورشليم [القدس] من المسيح الدجال.

يقول إيكهارد الآورى فى كتابه «رحلة أورشليم [القدس]» وهو عبارة عن حكاية من القرن الحادى عشر: «ظهرت نذر عدة فى السماء وعلى الأرض وهيجت مشاعر كثرة ممن كانوا لا يبالون بالحملة الصليبية. فأظهر البعض علامة الصليب مطبوعة بفعل إلهى على جباههم أو ثيابهم أو على بعض أوصالهم، وبهذه العلامة كانوا يعتبرون أن الانضمام إلى جيش الرب فرض عليهم. وفى وسط كل هذا هرعت كثرة من الناس إلى الكنائس فى حشود، وكان القسس يباركونهم ويعطونهم سيوفًا وهراوات وحقائب حج فى طقس دينى جديد»(٨٧).

بعض الصليبيين هاجت مشاعرهم حتى أنهم لم يطيقوا صبرًا حتى يبلغوا الأراضى المقدسة ليشهروا سيوفهم. ولدى عبورهم الريف الأوروبى كانوا ينقضون على تجمعات اليهود التى تقع فى طريقهم ويقيمون محارق لمن قيل لهم إنهم أعضاء «مجمع الشيطان». بل إن «الغيبيات الشعبية» فى أوروبا العصور الوسطى ـ كما سبق أن رأينا ـ كانت تشمل فكرة فحواها أن عدو المسيح سيكون من نسل الشيطان وغانية يهودية، وبالتالى لم يكن الجنود الصليبيون يجدون غضاضة فى ذبح اليهود رجالاً ونساء وأطفالاً على السواء، فقد يكون أيهم عدو المسيح نفسه(٨٨).

والحافز الرؤيوى نفسه كان يضطرم فى عقول العامة من الفقراء والعاجزين الذين كانوا يثورون من حين لآخر على أسيادهم كما تنبأ كل من هيلديجارد و«الأخ چون» تمامًا. فاعتُبرت حركة وات تايلر فى سنة ١٣٨١م، حركة تمرد دامية قام بها العمال والفلاحون الإنجليز ضد الطبقة العليا ورجال الإكليروس، إحدى علامات آخر الأزمان، وشُبه الغوغاء المسلحون بجيوش جوج وماجوج الرؤيوية. وأقام التابوريون وهم حركة قوامها فلاحو بوهيميا وفقراء براغ من الحضر تجمعاتهم المسلحة الخاصة فى القرن الخامس عشر انتظارًا للمملكة الألفية التى ستطيح بالملوك والقساوسة على السواء. وفى سنة ١٤٥٢م، نجحت حملة تأديبية فى الاستيلاء على آخر معاقل التابوريين فيما ثبت أنه مجرد صورة مصغرة من سفر الرؤيا. وكانوا ينشدون وهم يستعدون لمعركة أرمجدون ويقولون: «خلصونا من عدو المسيح الشرير وجيشه اللئيم؛ ملعون من يمنع سيفه من سفك دم أعداء المسيح»(٨٩).

كانت الاضطرابات والانتفاضات التى تلت حركة الإصلاح الپروتستانتية تشمل انتفاضة فلاحين مسلحة فى ألمانيا بقيادة توماس مونتسر (حوالى ١٤٨٨ ـ ١٥٢٥م) وهو قس تملكته فكرة أن الرب اصطفاه ليكون الملهم الجديد عشية آخر الأزمان. فأعلن مونتسر فى تلميح «للحاصد المتجهم» كما ورد بسفر الرؤيا قائلاً: «آن أوان الحصاد، والرب استخدمنى لحصاده. فشحذت منجلى، وشفتاى ويدى وجلدى وروحى وبدنى وحياتى كلها تلعن الكافرين». وكان يعتبر أتباعه المؤمنين به «النخبة»، وكل من عداهم أعوان إبليس. وكان يقول: «غير المؤمنين لا حق لهم فى البقاء أحياء باستثناء من تسمح «النخبة» لهم بالبقاء». وككثير من المحاربين المسيحانيين غيره تم اصطياده وتعذيبه وقطعت رأسه من قبل الأمراء، ممن كان يلعنهم بكل جرأة باعتبارهم «أشرارًا كافرين»(٩٠).

دفقة أخرى من «الحمى الرؤيوية» عجلت بها الحملة الصليبية التى شنها لويس الرابع عشر بأواخر القرن السابع عشر على الپروتستانت الفرنسيين أو «الهوجونرت»(٩١). ونظرًا لاعتيادهم منذ عهد بعيد على الاضطهاد والقهر على يد الحاكم الكاثوليكى، هرعوا إلى «الأنبياء الأطفال» فطمأنوهم إلى أن أحدث ما تعرضوا

له من مظالم هى من علامات «المجىء الثانى». ونجح بعض المبشرين من الهوجونرت ممن يؤمنون بفكرة أن «بابل» الفرنسية ستهلك فى سنة ١٦٩٠م فى شن حرب عصابات بمن عرفوا باسم متمردى كاميسار على جيش ملِك الشمس. وانتهت الحرب بسحب كافة الحريات المدنية والدينية والنفى الاختيارى لقرابة نصف مليون من الهوجونرت.

إلا أن تلبية الحافز الرؤيوى بلغت أقصى تعبير عنها فى سنة ١٥٣٤م بإقامة مملكة مسيحانية بمدينة مونستر الألمانية. إذ ظهرت طائفة متطرفة من البروتستانت تدعو لضرورة تجديد التعميد ـ تعارض تعميد الأطفال ـ تؤمن بأن العالم بأسره عدا بلدتهم على وشك الدمار. وستكون مونستر فى زعمهم أورشليم [القدس] الجديدة والمكان الذى ستنشأ فيه «مملكة لألف سنة» و«مسحوا» خياطًا سابقًا وممثلاً يدعى چان بوكلسن (أو چان ڤان لايدن) ليكون «مسيح آخر الأيام»(٩٢). وكان أول عرض عام يؤديه الشاب الكارزمى الوسيم المتحمس عرضًا صارخًا متميزًا.

يقول المؤرخ الإنجليزى المتخصص فى دراسات العصور الوسطى نورمن كون فى كتابه «البحث عن الألفية ـ The Pursuit of the Millennium» : «أخذ يركض عبر طرقات البلدة عاريًا فى حالة هستيرية، ثم سقط فى انتشاءة صامتة دامت ثلاثة أيام. وحين استرد النطق، جمع الأهالى وأعلن أن الرب أوحى له بأن بناء البلدة القديم من عمل البشر ولا بد من استبدال بناء جديد من صنع الرب»(٩٣).

كان المطلوب من أهالى البلدة التنازل عما لديهم من ذهب وفضة ويخضعون لتجديد تعميدهم، والالتزام بأحكام صارمة فى الأخلاق الجنسية لتطهير المسيحيين الأتقياء جميعًا تحسبًا لقرب يوم القيامة. وأعاد بوكلسن النظر فيما بعد فى الأحكام ليسمح بممارسة تعدد الزوجات اقتداءً بالآباء والملوك العبرانيين، وما لبث حتى اتخذ لنفسه تشكيلة من الفتيات «لا يزيد عمر أيهن عن العشرين» زوجات له. وكل من يتحدى سلطته كان مصيره الإعدام. وأعلن قائلاً: «لدىّ الآن سلطة على كل أمم الأرض، ومن حقى أن ألجأ للسيف لصد الأشرار والدفاع عن الأخيار؛ لذا فلا يلوثن أحد من أهل هذه البلدة نفسه بالإثم أو يعترض مشيئة الرب، وإلا أعدم على الفور بحد السيف»(٩٤). وكان بوكلسن يشرف بنفسه على قطع الرقاب الذى كان يتم فى

ميدان البلدة «بسيف العدالة» وهو جالس على عرش من ذهب، وتولى ملك «أورشليم [القدس] الجديدة» قطع عدد غير قليل من الرقاب بنفسه. وكان من بين الضحايا امرأة اقترفت جريمة «حرمان زوجها حقوقه الزوجية»(٩٥).

وأعلن أحد الدعاة الملكيين قائلاً: «إن مجد كل القديسين هو شفاء الغليل بالانتقام. الانتقام بلا رحمة لا بد أن ينزل بكل من لم يوسم بالعلامة (وسم الطائفة)»(٩٦).

كانت «مملكة الألف سنة» محكومًا عليها بالفناء منذ البداية بالطبع. إذ استنجد أسقف البلدة بالمدن والولايات المحيطة للتبرع بالسلاح والرجال والجياد والمال لتجريد حملة على مونستر، وحوصرت البلدة. واستمر بوكلسن وبلاطه الملكى ينعمون باللحم والخمر اللذين كانوا يصادرون من الرعايا، بينما تدهور الحال بمن عداهم فاقتاتوا على لحم الكلاب والقطط والفئران ثم على «العشب والطحالب والنعال القديمة وملاط الحيطان» وفى النهاية «على جثث الموتى»(٩٧). وأخيرًا وفى سنة ١٥٣٥م استولى الجيش المحاصِر على البلدة فى هجوم مباغت حاسم، وتم إعدام المدافعين فى مذبحة عامة دامت أيامًا عدة. وتم تعذيب بوكلسن وشرذمته لمدة طويلة بالحديد المحمى، وتم عرض جثثهم المشوهة فى مكان عام ليكونوا عبرة لكل من تسول له نفسه من قراء سفر الرؤيا أن يبتدع «بدعة رهيبة» مماثلة.

إذن فالمسألة أن أى واعظ يمكن أن يسعى لإضرام النار فى قلوب جمهوره بالرعب واللهفة ينتهى الأمر بحرقه بنار من صنع يده. كان هذا مصير رجل يدعى «شهيد النبوءة» وهو چيرولامو ساڤونارولا (١٤٥٢ ـ ١٤٩٨م) الذى كان أشهر المتطرفين الرؤيويين(٩٨). كان مقدرًا لفلورنسا أن تصبح «أورشليم [القدس] الجديدة» أو هكذا آمن ساڤونارولا وبشر، واعتبر أن رسالته الإلهية أن يجعلها كذلك. وفى لحظة من التاريخ كانت أوروپا فيها مبتلاة بـ«المتنبئين والأشباح والارتباطات الفلكية ذات المضمون المخيف» حسب قول أحد كتّاب الأخبار المعاصرين. وكان أهالى فلورنسا جمهورًا لديه الاستعداد لهذه الأمور(٩٩).

وكمؤلف سفر الرؤيا، كان ساڤونارولا جنديًّا متطوعًا فى حرب حضارية. فكان

الراهب الدومينيكانى مستاءً، مما سمى «انحرافات وشرور العميان ممن انحدرت الفضيلة بينهم إلى درجة الصفر وانتصر الفساد فيهم»(١٠٠) أى أساليب الحياة والفن الدنيوية التى تعتبر حاليًّا أمجاد عصر النهضة. وكما أدان يوحنا متع الوثنية الرومانية وثرواتها «بَضَائِعَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَجَرِ الْكَرِيمِ وَاللُّؤْلُؤِ وَالْبَزِّ وَالأُرْجُوانِ وَالْحَرِيرِ وَالْقِرْمِزِ...»(١٠١) كان ساڤونارولا يدين حياة البذخ التى يعيشها رجال الدين الكاثوليك الرومان. وأعلن قائلاً: «أنتم زرتم روما، إذن فلا بد أنكم تعرفون شيئًا عن حياة هؤلاء القساوسة. إن لديهم محظيات وحراسًا وجيادًا وكلابًا، وبيوتهم ملأى بالبسط وأنواع الحرير والعطور والخدم. وخيلاؤهم معروف فى العالم، وشرههم يسبق خيلاءهم. وكل أفعالهم فى سبيل المال»(١٠٢).

كان ساڤونارولا مرة أخرى كمؤلف سفر الرؤيا واعظًا موهوبًا وقويًّا، وكانت خطبه «تشعل نار الفزع الدينى الذى ألهب حتى أهدأ عقلاء المدينة» حسب قول المؤرخ الحضارى روبن بارنز(١٠٣). وكانت محاضراته العامة عن سفر الرؤيا تحظى بشعبية كبيرة اضطرته للانتقال إلى مقر أكبر يسع حشوده. وكان الناس يتحمسون لتحذيره بقرب نهاية العالم، فهناك «أمواج من الدم» و«مجاعة رهيبة» و«وباء عاتٍ» بانتظار الآثمين(١٠٤). وكان يثيرهم مرأى أى عراف وهو يمارس نشاطه. وكان ساڤونارولا يتشدق فى خطبه الساخنة قائلاً: «إن الأسباب التى تدعونى لإعلان هذه الرزايا والغوائل تقوم على كلمة الرب. رأيتُ علامة فى السماء. ولم تكن صليبًا هذه المرة، بل سيفًا. إنه سيف الرب الرهيب الماضى الذى سيضرب الأرض!»(١٠٥).

وكان ساڤونارولا يوصى جمعه بالانصراف عن متع الجسد انتظارًا ليوم الحساب. وكان يشكو من أن «أى صبى لا يستطيع أن يمشى فى الطرقات دون أن يقع فى أيدٍ شريرة» وأعلن أن «اللواط خطيئة تطوق فلورنسا»(١٠٦). إلا أنه كان أقل حدة فيما يتعلق بالتجاوزات الجنسية للنساء سواء أكانت حقيقية أم وهمية. فكان يندد قائلاً: «كتل شحم طرية وكبيرة أنتن بشعركن المخضب ووجناتكن المحمرة وجفونكن الملطخة بالفحم. عطوركن تسمم هواء شوارعنا ورياضنا. ولا تقنعن بأن تكنّ محظيات أهل الدنيا والشباب الضالين، فتطاردن القسس والرهبان لتوقعن بهم فى حبائلكن وحيلكن

القذرة »[١٠٧]. وكان يرمى البابا ورجال الإكليروس بالتهم نفسها مستغلاً عبارات سفر الرؤيا الملتهبة فى خطبه: «تعالوا هنا يا هرطقة كنيسة! شهواتكم جعلتكم بغيًّا وقحة. أنتم أسوأ من الوحوش إذ تحولتم إلى وحش لا يوصف!»[١٠٨].

وكانت أوضح اللحظات فى حرب ساڤونارولا على الإنسانية وفن النهضة الرفيع ما عرف بمحرَقة الزيف، وهى محرقة حض أهالى فلورنسا التائبين رجالا ونساء أن يلقوا فيها بالحلى والثياب المبهرجة والشعر المستعار والعطور ومساحيق الوجه والمرايا وطلاء الشفاه والنرد وأوراق اللعب و«بعض الآلات الموسيقية التى تصدر أنغامًا ذات طبيعة مثيرة»[١٠٩]. ويمكن وصف بعض وقود هذه المحرقة بالإباحية أو أسوأ «تماثيل من رخام فى أوضاع ماجنة ودمى آلية تؤدى حركات متهتكة وكل ما يثير الشهوات»[١١٠] لكن هناك لوحات لبوتيتشيللى وكتبًا لبترارك وبوكاتشيو ألقيت أيضًا فى النار[١١١]. وكان يعد بأن يكون جزاء تضحية أهالى فلورنسا الارتقاء بمدينتهم إلى مكانة «أورشليم [القدس] الجديدة»، أى نموذج النقاء المسيحى وعاصمة المملكة الألفية.

وككثير من الوعاظ الرؤيويين لم يكن ساڤونارولا يرى فارقًا يذكر بين الدين والسياسة. بل إن رؤياه عن آخر الأزمان كانت متأصلة فى تربة عمق السياسة العملية؛ لذا فإنه مثلا كان يدين البابوية فى روما لأسباب أخلاقية، فأعلن قائلاً: «حولوا كنائسهم إلى أكشاك للعاهرات، وسأحيلها أكشاكًا للخنازير والجياد؛ لأن هذه المخلوقات لا تغضب الرب بهذا القدر»[١١٢]. ودفعه اشمئزازه الأخلاقى لأخذ جانب الملك الفرنسى شارل الثامن الذى كان ينافس البابا على السيادة السياسية على إيطاليا. ولم يكن ساڤونارولا منزعجًا لسفك الدم والفوضى اللذين دعا لهما، بل حرض عليهما. وعندما سعى البابا ألكساندر لعقد صلح منفرد مع ساڤونارولا بعرض ترقيته لمرتبة كاردينال، وهو منصب كان شعاره تاجًا قرمزيًّا، فإن البابا أساء الحكم على سجايا المؤمن الحق. فأجابه ساڤونارولا قائلاً: «أنا يا رب لا أبغى إلا ما أعطيتَ للقديسين: الموت. قبعة حمراء، نعم، أما حمراء من الدم فهذا ما أتمنى»[١١٣].

وربما فاز ساڤونارولا بالأرواح المذنبة والنفوس الخائفة التى اجتمعت لخطبه النارية، لكنه نجح أيضًا فى عزل من اتخذوا جانب البابا من أثرياء فلورنسا ووجهائها

ومن أغضبهم وأحرجهم تنديد ساڤونارولا بالثراء والامتيازات. فقال أحد خصومه فى إشارة إليه بلقبه واسمه الأول: «الأخ جيرولامو إما تتراءى له أشباح أو يسرف فى معاقرة الخمر»(١١٤). وخطط أعداء ساڤونارولا فى فلورنسا بالتنسيق مع البابا فى روما لإلقاء القبض عليه وتعذيبه ومحاكمته، وأدين بتهمتى الهرطقة والانشقاق. وقال الأسقف الذى تولى إدارة المراسم الرسمية للعزل الكنسى: «حكمنا بعزلك من الكنيسة المحاربة والمنتصرة، فرد المنشق ساڤونارولا قائلاً: من «الكنيسة المحاربة» لا من «الكنيسة المنتصرة»، فهذا أمر خارج عن قدرتك»(١١٥).

لم تدم «الجمهورية المسيحانية الأم» التى أنشأها ساڤونارولا فى فلورنسا إلا لثلاث سنوات(١١٦). وفى ٢٤ مايو ١٤٩٨م تم تجريد ساڤونارولا من وزرة الرهبان وحلقت رأسه لإزالة حلق الرأس الذى يميز الرهبان، وشُنق بحبل لُف حول جيده، ثم ألقى جثمانه المهشم فى النار فى الميدان المزدحم والصاخب نفسه الذى سبق أن أضرم فيه هو نفسه نيرانه الخطيرة. فصاح أحد المستهزئين وسط صخب الدهماء قائلاً: «آن الأوان لكى تبين كراماتك يا نبى!»(١١٧).

ومع ذلك فالفكرة الرؤيوية ليست دائمًا أو ليست مجرد مسألة كآبة وشؤم. فسفر الرؤيا، وكافة الكتابات الرؤيوية فى التراثين اليهودى والمسيحى على السواء ـ يمكن اعتباره قصة تنتهى بأسعد النهايات بالنسبة للقراء ممن لديهم الميل لذلك. فيوحنا يتوعد أن عالمنا المظلم مآله إلى نار وكبريت، لكنه يعد أيضًا بسماء جديدة وأرض جديدة. فيقول الرب فى ختام سفر الرؤيا: «هَا أَنَا أَصْنَعُ كُلَّ شَىْء جَدِيدًا»(١١٨)؛ لذا فالتراث الرؤيوى يوصف بحق بأنه «ثنائى القطب»: فالجانب السيئ فيه دمار الأرض وانقراض البشرية، أما الجانب الخيّر فهو أن القديسين سيخلدون فى الفردوس أبدًا(١١٩).

فى اللحظة التى أخذت أحلام ساڤونارولا الرؤيوية ـ ومعها ساڤونارولا نفسه ـ تحترق فى النار، مثلاً، كان هناك قارئ آخر شهير لسفر الرؤيا يتطلع لمصير أسعد لنفسه وللإنسانية كلها. فكريستوفر كولومبس (١٤٥١ ـ ١٥٠٦م) اشتهر برحلته الكشفية التاريخية أكثر مما اشتهر بتكهنه الرؤيوى بالطبع. ولكن قبل أن ينطلق كولومبس فى أولى رحلاته العظيمة كان «أميرال البحار المحيطة» قد وجد طريقه إلى النصوص الصوفية

القديمة التى طالعها جميعًا بشغف بالغ. وفيما بين رحلتيه البحريتين الثانية والثالثة إلى أمريكا، جمع كولومبس مجموعته الخاصة من الفقرات الرؤيوية والنبوئية التى استخلصها من الكتاب المقدس وكتابات الآباء الكنسيين والعديد من الشروح الوسيطة فى كتاب سماه «سفر النبوءات».

كان هدفه ضمان الحصول على الرعاية الملكية لمشروع مختلف تمامًا وإن لم يكن أقل طموحًا. فالأراضى المقدسة ظلت تحت السيادة الإسلامية، لكن كولومبس وجد فيما قرأ فى النصوص الرؤيوية ما شجعه على أن يرى لنفسه دورًا فى تحقيق ما فشل الصليبيون مرارًا فى تحقيقه، أى هزم سادة أورشليم [القدس] المسلمين. بل إنه كان مقتنعًا بأن الرب أنعم على العالم المسيحى بذهب أمريكا وفضتها بغرض تمويل إعادة بناء هيكل أورشليم [القدس] «المدينة الرؤيوية رقم واحد بلا منازع»(١٢٠).

وشهد كولومبس نفسه تصاعدًا جديدًا للسعار الرؤيوى. فراعيه الملكى فرديناند ملك أراجون كان يعد مرشحًا مؤهلاً للقب «آخر أباطرة العالم»، واعتُبر انتصار التاج الإسپانى على آخر الممالك الإسلامية بشبه جزيرة أيبيريا إحدى علامات اقتراب أوان المملكة الألفية. ونظرًا لأن «أورشليم [القدس] الجديدة» كانت أحد عناصر آخر الأزمان الأساسية كما تنبأ بها سفر الرؤيا، فقد تطلع كولومبس لأن يقدم خدماته لتحقيقها على أرض الواقع.

ومن بين النصوص التى رجع إليها كتابات يواقيم الفيورى، ورأى نفسه فى النبوءات التى صادفته فيها. يقول كولومبس فى سرد عن آخر رحلاته إلى أمريكا فى السنوات الأولى من القرن السادس عشر: «أورشليم [القدس] وجبل صهيون يجب إعادة بنائهما بيد مسيحى، والراهب يواقيم قال إنه سيأتى من إسپانيا. فمن ذا الذى سيكرس نفسه لهذه المهمة؟ لو أعادنى ربنا إلى إسپانيا أتعهد لنفسى باسم الرب أن آتى به سالمًا إليها [أى يأتى بالرب سالمًا إلى أورشليم «القدس» وجبل صهيون]»(١٢١).

كان كولومبس يعيش مثل ساڤونارولا فى حالة «وشك نفسى»، أى «الاقتناع بأن أحداث التاريخ الأخيرة وشيكة، وإن كنا لا نستطيع أن نحدد مدى قربها أو بعدها عن يوم الحساب الأخير»(١٢٢). وتوفى الرجلان بالطبع دون أن يريا أحلامهما الرؤيوية

تتحقق، ولكن تبين أن كولومبس كان لديه حس أفضل «بتاريخ المستقبل». وأخذ الجيل التالى من أصحاب الرؤى على عاتقهم إيجاد المملكة الألفية الموعودة فى سفر الرؤيا، لا فى الأراضى المقدسة بل على أرض القارة الجديدة التى عثر عليها كولومبس عندما أبحر غربًا بحثًا عن طريق مختصرة إلى الهند. وعندما قفز سفر الرؤيا قفزته الكمية من سواحل أوروپا المظلمة إلى برية أمريكا الشمالية البكر، شهدت الفكرة الرؤيوية تحولاً كاملاً ومصيريًّا. يقول مؤلف سفر الرؤيا فى ذروة أحلامه الرؤيوية: «رَأَيْتُ سَمَاءً جَدِيدَةً وَأَرْضًا جَدِيدَةً». ويقول كولومبس: «الرب جعلنى رسول السماء الجديدة والأرض الجديدة التى تحدث عنها فى رؤيا القديس يوحنا، ودلنى على البقعة التى أجدها فيها»[١٢٣].

ومما يذكر أن العبارة المترجمة بمعنى «التراب الجديد» فى معظم ترجمات الكتاب المقدس الإنجليزية، وبمعنى «الأرض الجديدة» فى كتابات كولومبس ترد فى ترجمة الكتاب المقدس اللاتينية «terra nova». إلا أن أقرب ترجمة لهذه العبارة اللاتينية هى «العالم الجديد». وسفر الرؤيا كما سنرى لن يصل إلى أثرى وأغرب تعبير عنه إلا فى أمريكا[١٢٤].

❁ ❁ ❁